أضواء من التفسير

تأليف

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا

بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سابقًا

والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

أضواء من التفسير

تأليف

عبد القادر بن شيبة الحمد

عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة سابقًا
والمدرس بالمسجد النبوي الشريف

وَقفٌ لِلّهِ تَعَالى
يُوَزَّعُ مَجَاناً

سُورَةُ صٓ

ترتيبها ٣٨ — آياتها ٨٨

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣﴾

المناسبة:

هذه السورة كالمتممة لما قبلها من حيث إنه ذُكر فيها عدد من الأنبياء لم يذكروا فى السورة السابقة، وكذلك فإنه لما ذكر عن الكفار فى السورة السابقة أنهم كانوا يقولون: لو أن عندنا ذكرًا من الأولين لأخلصنا العبادة لله وحده، وأنهم لمّا أتاهم الذكر كفروا به؛ فبدأ هنا بالْقَسَمِ بالقرآن ذى الذكر الذى جاءهم فخالفوه، وكفروا به.

سبب النزول:

أخرج ابن جرير وغيرُه عن ابن عباس قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش فيهم أبو جهل فقالوا: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه فجاء النبى ﷺ، فدخل البيت وبينهم وبين أبى طالب قَدْرَ مجلسِ رجل، فخشى أبو جهل إن جلس النبى إلى أبى طالب أن يكون أرق عليه، فوثب فجلس فى ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله ﷺ مجلسًا قرب عمه فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أى ابن أخى، ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم - قال وأكثروا عليه من القول - وتكلم رسول الله ﷺ فقال: يا عم، إنى أريدهم على كلمة واحدة يقولونها يَدين لهم بها العرب، وتؤدِّى لهم بها الجزيةَ العجمُ، ففرحوا لكلمته ولقوله. فقال القوم: لنعطينكها وعشرًا. قال: لا إله إلا الله. فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون: «أجعل الآلهة إلهًا واحدًا؟ إن هذا لشىء

عجاب»!. فنزل فيهم القرآن: ﴿صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ حتى بلغ ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ اخْتِلاقٌ﴾.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿ص﴾ بسكون الدال، وقُرِئ ﴿صادُ﴾ بضم الدال وقرِئ بكسر الدال، بتنوين وبغير تنوين، وقُرِئ بفتح الدال، وقرأ الجمهور ﴿عِزَّة﴾ بالعين المهملة والزاى المعجمة، وقُرِئ ﴿غرة﴾ بالغين المعجمة والراء المهملة. وقرأ الجمهور ﴿وَلاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ بفتح النون من ﴿حين﴾، وقُرِئ بضمها، وقُرِئ بكسرها أيضًا.

المفردات:

﴿ص﴾ من الفواتح الكريمة مثل: ﴿ق﴾ و﴿ن﴾ و﴿حم﴾ و﴿ألم﴾ وغيرها، فمن الناس من قال: لا تفسير لها، إمَّا لأنها لا معنى لها أصلاً، وإلى هذا ذهب الحشوية، وإمَّا لأن معناها استأثر الله بعلمه وإليه ذهب كثير من المتكلمين والأصوليين. ويقولون: الله أعلم بمراده به.

ومن الناس من قال لها معنى يدرك؛ وقد اختلف أصحاب هذا القول فى المعنى المراد منها فقيل: إنها اسم السورة، وقيل: اسمٌ للقرآن، وقيل: مبادئ لأسماء الله تعالى أو لأفعاله، وقيل غير ذلك. وقد اختار كثير من المحققين منهم شيخ الإسلام «ابن تيمية» أنها للدلالة على الإعجاز والتحدى.

وقد لوحظ أن السور المبدوءة بهذه الفواتح المباركة يغلب عليها طابع الإعجاز والتحدى، وهى من خواص السور المكية إلاّ فيما ندر كالبقرة وآل عمران. وقد بُدِئ بها تسع وعشرون سورة عدد حروف المعجم. كما لوحظ أن هذه السور لها طابع خاص إذ يبدأ فيها بعد الفواتح بذكر القرآن، إمَّا صراحةً وإمَّا ضمنًا، فيعظمه ويمجده، ثم يذكر أصناف الناس بالنسبة إليه، وأنهم اختلفوا فيه كما اختلفوا على كتب الأنبياء السابقين. ويبين أن الفئة التى تتمسك به هى العزيزة الغالبة الظاهرة المنصورة فى الدنيا، وأنها السعيدة الفائزة بجنان الخلد ورضوان الله فى الآخرة، وأن المعادين لهم مغلوبون مقهورون معرَّضون لعذاب الله فى

العاجلة والآجلة. يضرب الله تعالى لذلك ما شاء من الأمثلة، ويقصُّ ما شاء من أحسن القصص، الذى يشرح هذه الفكرة، ويوضح هذا الهدف، ثم يختم السورة بذكر القرآن فيعظمه ويمجده كما بدأ أولاً.

وأما من قرأ صادِ - بكسر الدال - من غير تنوين فقيل: إنه فعلُ أمرٍ من المصاداة وهى المعارَضة، ومنه الصَّدَى وهو ما يعارض الصوتَ الأولَ فى الأماكن الخالية والأجسام الصلبة، والمعنى: عارِضْ بعملك القرآن أى اعمل بأوامره ونواهيه.

﴿القرآن﴾ هو فى الأصل مصدر قَرَأَ كالقراءة، ثم جُعِلَ علمًا على كلام الله تعالى المنزل على محمد ﷺ المعجز بأقصر سورة منه.

﴿الذكر﴾ الشرف ومنه قوله: ﴿وإنه لذكرٌ لك ولقومكَ﴾ كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس. أو الذكرى والموعظة للناس كما روى عن قتادة والضحاك، أو الذى يذكر ما يحتاج إليه فى أمر الدين من الشرائع والأحكام كما قيل. ﴿كفروا﴾ جحدوا. ﴿عزّة﴾ تكبر عن الحق. ﴿غرة﴾ غفلة، ﴿شقاق﴾ أصل الشقاق المخالفة وكونك فى شق غير شق صاحبك، وجانب سوى جانبه، والمراد مخالفة الله ورسوله. ﴿أهلكنا﴾ دمرنا. ﴿قرن﴾ أمة وجيل. ﴿فنادوا﴾ فاستغاثوا. ﴿ولات حين مناص﴾ أى ليس الوقت وقت فرار، فالحين: الوقت، والمناص: المنجى والفرار.

التراكيب:

(ص) ليست معربة عند من قال: إنها لا تفسير لها؛ لأن الإعراب فرع إدراك المعنى. أما من فسرها فهى معربة عنده، فيجوز أن تكون مرفوعة خبرًا لمبتدأ محذوف أو مبتدأ والخبر ما بعدها، ويجوز أن تكون منصوبة بفعل مقدر أو على نزع الخافض على رأى من قال: إنها للقسم بها، ويجوز أن تكون مجرورة على حذف حرف الجر - وهو حرف القسم - وبقاء عمله، وقيل: هذا شاذ؛ لأنه لا يحذف حرف الجر ويبقى عمله إلا مع اسم الله تعالى خاصة. ومن قرأ ﴿ص﴾ بسكون الدال فالسكون لأجل الوقف كأسماء الأعداد التى لم تلها العوامل.

ومن قرأ بالضم فهى: ضمةُ إعراب أو لأجل التقاء الساكنين. ومن قرأ بالفتح فهى فتحة إعراب على أنها منصوبة أو فتحة لأجل التقاء الساكنين أيضًا. ومَن قرأ بالكسر من غير تنوين فهى: إمَّا أمر من صادَى - بفتح الدال - بمعنى عارض كما تقدم، أو للجر على القسم، أو لأجل التقاء الساكنين أى السكون على الدال وألف صاد، ومن قرأ بالكسر والتنوين فلاعتبار ذلك اسمًا للقرآن كما هو أحد الاحتمالات فيه فلم تتحقق فيه العلتان وهى: العلمية والتأنيث فوجب صرفه، وجُرَّ بحرف جر حُذف وبقى عمله كما تقدم. والواو فى القرآن للقسم إذا لم تكن صاد للقسم بها، وإلاَّ فهى للعطف. وجواب القسم محذوف والمختار أن تقديره: إنّ القرآن لحق، وإنك لمن المرسلين بدليل ﴿يسٓ ① وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ② إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ولقوله هنا: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

والقَسم بالقرآن على حقية القرآن ضربُ من البلاغة بديع. بل: للإضراب الانتقالى من هذا القسم والمُقسم عليه إلى ذكر حال تكبر الكفار ومشاقتهم فى قبول الرسالة. ويجوز أن تكون بل للإضراب الإبطالى، وتكون حينئذ لإبطال شىء مفهوم من السياق كأنه قيل: ليس كُفر هؤلاء لخلل فى القرآن أو لمطعن فيه، بل الخلل فى أنفسهم وهو أنهم فى تكبر وعناد وخلاف.

والتعبير بـ «فى» فى قوله ﴿فى عزة﴾ لإفادة استغراقهم فى التكبر والخلاف. ﴿كم﴾: خبرية للتكثير، وهى مفعول بأهلكنا، و﴿من قرن﴾: تمييز والفاء فى ﴿فنادوا﴾: للسببية. ﴿ولات﴾: الواو للحال، ولات هى لا المشبهة بليس عند سيبويه زيدت عليها التاء لتأكيد معناها، وعند الأخفش هى لا النافية للجنس تعمل عمل إنَّ وزيدت عليها التاء.

و﴿حين﴾ بالنصب خبر لات عند سيبويه، واسمها محذوف تقديره: ولات الحين حين مناص؛ وعند الأخفش ﴿حين﴾ اسم ﴿لات﴾، وخبرها محذوف تقديره: لهم؛ ومن قرأ بضم النون فهى اسم ﴿لات﴾ على مذهب سيبويه والخبر محذوف. وعند الأخفش هى مبتدأ والخبر محذوف؛ لأن مذهبه أنه إذا ارتفع ما بعدها فعلى الابتداء.

وأما قراءة كسر النون فقد قال أبو حيان: الذى ظهر لى فى تخريج هذه القراءة الشاذة أن الجر على إضمار من كأنه قيل: ولات من حين مناص. كما قالوا: لا رجل جزاه الله خيراً يريدون لا مِنْ رجل، ويكون موضع من حين مناص رفعًا على أنه اسم لات على مذهب سيبويه والخبر محذوف، وعند الأخفش على أنه مبتدأ والخبر محذوف.

المعنى الإجمالى:

هذا تحدٍّ لكم يا أرباب الفصاحة، وأمراء البيان، وأساطين البلاغة، تعجزون عن محاكاته، والإتيان بمثله، مع أنه منظوم من مثل ما تنظمون منه كلامكم، وأُقسم بكلامى المنزل على محمد رسولى، الذى فيه شرفكم وشرف العرب أجمعين، إن القرآن لحقٌّ وإن محمداً لمن المرسلين، ولم يطعن هؤلاء الكفرة الجاحدون فى القرآن لعيب لمسوه منه أو لخلل وجدوه فيه، أو لمطعن لاحظوه عليه، بل العيب فيهم، والخلل بأنفسهم وهو استغراقهم فى التكبر عن الحق أو غفلتهم عنه ومجانبتهم لداعى الخير، فليعلم هؤلاء الجاحدون أنهم بهذه المشاقة يعرِّضون أنفسهم لعقابنا، ولو نزل بهم لَمَا استطاعوا فراراً. لقد أردنا تدمير كثير من الأمم الماضية قبل قريش لَمَّا شاقوْا الرسل، وأرسلنا عليهم العذاب، فلما عاينوه استغاثوا طالبين المنجى والفرار، والحالُ والشأن أنه ليس الوقت وقت فرار وطلب للنجاة.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تحدى العرب بالقرآن وإعجازهم به.

٢ - بيان شرف القرآن فى نفسه.

٣ - تشريفه للعرب.

٤ - براءته من كل عيب.

٥ - لم يعارضه معارضوه لعيب فيه بل العيب فيهم.

٦ - أنَّه لا يعارضه إلاّ المتكبرون المعاندون.

٧ - تحذير الكفار.

٨ - أنَّه إذا نزل العذاب لا يمكن الفرار.

قال تعالى: ﴿ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾

المناسبة:

هذه الآيات حكاية لأباطيلهم المتفرعة على ما حكاه الله من استكبارهم وعنادهم، فبعد أن أخبر عنهم أنهم فى عزة وشقاق أردف بما صدر عنهم من تعجبهم منه ﷺ، ونسبتهم السحر والكذب إليه.

المفردات:

﴿عجبوا﴾ استغربوا وأنكروا أشد الإنكار. ﴿جاءهم﴾ أتاهم. ﴿منذر﴾ أى: رسول يبلغهم عن ربه ويعلمهم ويخوفهم. ﴿منهم﴾ أى: من جنسهم فى البشرية، ونوعهم فى العربية والأمية. ﴿الكافرون﴾ الجاحدون. ﴿ساحر﴾ متعاطٍ للسحر، وهو ما لطف ودَقَّ وخَفِيَ مأخذه، فالخوارق والمعجزات التى يأتى بها محمد ﷺ من قبيل السحر عند هؤلاء. ﴿جعل﴾ بمعنى. صيَّرَ، وهى من التصيير فى القول والزعم لا فى الخارج والوجود.

﴿إلهًا﴾ أى: معبودًا مألوهًا مقصودًا محبوبًا. ﴿واحدًا﴾ متفردًا بالألوهية ليس له شريك فيها. ﴿عجاب﴾ بناء مبالغة من العجب أى: هذا بليغ فى النكارة والغرابة لا يحتمل الوقوع.

﴿انطلق﴾ ذهب. ﴿الملأ﴾ الأشراف ووجوه القوم، منهم: أبو جهل، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب بن عبد يغوث، وعقبة بن أبى معيط.

﴿امشوا﴾ أمر بالمشى وهو نقل الأقدام، وقيل: الأمر بالمشى هنا لا يراد منه

نقل الخطى إنما معناه سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم، والانطلاق الاندفاع فى القول، والأول أظهر للسياق وهو الذى يدل عليه سبب النزول.

﴿واصبروا﴾ احبسوا أنفسكم على عبادة آلهتكم وتمسكوا بها. ﴿يراد﴾ أى: يطلب منا الانقياد له، أو أن هذا من نوائب الدهر مراد منًا فلا انفكاك عنه، أو أن دينكم يطلب ليؤخذ منكم. ﴿بهذا﴾ بالتوحيد. ﴿الملة﴾: الشريعة. ﴿الآخرة﴾ ملة النصارى، أو قريش، أو اليهود والنصارى، أو الملة التى كنا نسمع أنها تكون فى آخر الزمان إذ لم يذكر لهم أنها تدعو إلى التوحيد. ﴿إنْ﴾ بمعنى: ما. ﴿هذا﴾ أى: الذى جاء به محمد ﷺ. ﴿اختلاق﴾ أى: كذب وافتراء.

التراكيب:

الواو فى قوله ﴿وعجبوا﴾ للاستئناف، والضمير فى عجبوا يعود إلى كفار قريش المفهومين من المقام. و﴿أنْ﴾ مصدرية وهى مع مدخولها فى تأويل مصدر مجرور بحرف جر مقدر بِمنْ أو اللام، و﴿منهم﴾ فى محل رفع صفة لمنذر، والتنوين فى ﴿منذرٌ﴾ للتعظيم كمثله فى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُوراً﴾ [فاطر: ٤٢]. والواو فى قوله ﴿وقال﴾ للعطف أى: عطف جملة على جملة. وأصل السياق يقتضى أن يقال «وقالوا» ولكنه عدل عن ذلك ووضع الظاهر موضع الضمير فقال: ﴿وقال الكافرون﴾ تنبيهًا على الصفة التى أوجبت لهم العجب، حتى نسبوا من جاء بالهدى ودين الحق إلى السحر والكذب، وإيذانًا بأنه لا يتجاسر على مثل هذا إلا المتوغلون فى الجحود والكفران. وجملة ﴿هذا ساحر كذاب﴾ فى محل نصب مقول القول، وكذلك الجملتان بعدها. وإنما ترك العطف بين جملة ﴿هذا ساحر كذاب﴾ وجملة ﴿أجعل الألهة إلهًا واحدًا﴾ لأن بينهما كمال الانقطاع؛ إذ الأولى خبرية والثانية إنشائية. وكذلك ترك العطف بين جملة ﴿أجعل الآلهة إلهًا واحدًا﴾ وجملة ﴿إنَّ هذا لشىء عجاب﴾ لنفس الحال، فالأولى إنشائية والثانية خبرية، وترك العطف لا يوهم خلاف المراد. والهمزة فى ﴿أجعل الآلهة﴾ للاستفهام التعجبى بمعنى كيف.

والواو فى قوله ﴿وانطلق الملأ منهم﴾ للاستئناف و﴿منهم﴾ فى موضع نصب على الحال من الملأ، و﴿أن امشوا﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية أى: انطلقوا بقولهم ﴿أن امشوا﴾، ويجوز أن تكون مفسرة لانطلق؛ لأنه ضمن معنى القول لأن المنطلقين عن مجلس التقاول لابد لهم من أن يتكلموا، وقيل: بل هى مفسرة لجملة محذوفة فى محل نصب على الحال من الملأ أيضًا والتقدير: وانطلقوا يتحاورون أى: امشوا. وقيل: لا حاجة إلى التقدير ولا التضمين لأن الانطلاق هنا الاندفاع فى القول والكلام نحو: انطلق لسانه فأنْ مفسرة له، وقوله ﴿على آلهتكم﴾ أى: عبادتها، فهى على حذف المضاف. وقوله ﴿إن هذا لشىء يُراد﴾ تعليل للأمر بالصبر، والإشارة راجعة إلى ظهور محمد ﷺ وتأليه إله واحد المفهوم من السياق.

المعنى الإجمالى:

واستغرب هؤلاء وأنكروا أشد الإنكار لمجىء رسول عظيم يبلغهم عن ربه، ويعلمهم ويخوفهم، وهو من جنسهم فى البشرية، ومن نوعهم فى العربية والأمية، وقال هؤلاء الجاحدون: إنه يأتى بالخوارق بواسطة تعاطى السحر وهو مفتر كثير الكذب، كيف يصيِّرُ المعبودات الكثيرة معبودًا واحدًا فينفى الألوهية عنها، ويقصرها على إله واحد؟! إن تأليه إله واحد لشىء بليغ فى العجب.

واندفع أشراف قريش من مجلس أبى طالب يتحاورون أى: امشوا وسيروا - أو اندفعوا فى الكلام - أى امشوا واثبتوا على طريقتكم، واحبسوا أنفسكم على عبادة معبوداتكم، إن ظهور محمد ﷺ لأمر يتطلب منا الانقياد له، أو إن هذا من نوائب الدهر ابتلينا به، وهو مراد منا فلا انفكاك لنا عنه، أو إن دينكم يطلب ليؤخذ منكم، ما سمعنا بالتوحيد فى شريعة النصارى، أو فى دين آبائنا أو فى شريعة اليهود والنصارى، أو فى الشريعة التى حدثنا بها الأحبار؛ فإنهم لم يذكروا لنا التوحيد، وإنما ذكروا أن نبيًا يُبعث آخر الزمان. ما هذا الذى جاء به محمد إلا كذب وافتراء.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - استغراب الكفار لمجىء الرسول منهم.

٢ - وأن سبب الاستغراب هذا هو الكفر.

٣ - وأن الكفر لا يأتى بخير.

٤ - وأن الدين الشائع عند ظهور الرسول هو الشرك.

٥ - مبالغة الكفار فى إنكار التوحيد.

٦ - تواصى الكفار بالتمسك بالشرك.

٧ - تكذيب القرآن ودعواهم أنه سحر.

٨ - اضطراب الكفار فى وصف محمد ﷺ.

******

قال تعالى: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾

المناسبة:

بعد أن بَيَّن الله تعالى ما صدر من هؤلاء الكفار نتيجة استكبارهم. بَيَّن هنا استبعادهم اختصاص محمد بالذكر والشرف دون أشرافهم بدعوى أنه ليس من أصحاب الأموال، ثم بَيَّن سبب هذا الاستبعاد وهدَّدهم وتوعدهم.

المفردات:

﴿أنزل﴾ ألقى. ﴿الذكر﴾ القرآن. ﴿شك﴾ ريب. ﴿ذكرى﴾ كلامى يعنى: القرآن.

﴿لما﴾ حرف نفى لما يتوقع حصوله. ﴿يذوقوا﴾ يحسوا ويختبروا طعم العذاب. ﴿عذاب﴾ عقاب.

﴿خزائن﴾ كنوز. ﴿العزيز﴾ الغالب القاهر. ﴿الوهاب﴾ الواسع العطاء الكثير المواهب. ﴿فليرتقوا﴾ فليصعدوا ﴿الأسباب﴾ المعارج التى يتوصل بها إلى العرش حتى يستووا عليه ويدبروا أمر العالم. ﴿جند ما﴾ أى جمع حقير. ﴿مهزوم﴾ مكسور مقهور. ﴿الأحزاب﴾ الكفار الذين تعصبوا فى الباطل.

التراكيب:

الهمزة فى قوله ﴿أءُنزل﴾ للاستفهام الإنكارى. وقوله ﴿من بيننا﴾ يشير إلى سبب الإنكار وهو الحسد الذى طحن صدورهم حتى أنكروا أن يختص بالشرف من بين أشرافهم، كما حكى عنهم فى سورة الزخرف إذ قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ . و﴿بل﴾ فى قوله ﴿بل هم فى شك من ذكرى﴾ للإضراب الإبطالى عن مقدر يُفهم من السياق تقديره: «ليس إنكارهم للذكر عن علم بل هم فى شك منه». والإخبار بأنهم فى شك يقتضى كذبهم فى قولهم: ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾. و﴿بل﴾ فى قوله ﴿بل لما يذوقوا عذاب﴾. للإضراب الانتقالى لبيان الحال الذى يزول فيه شكهم. ويذوقوا مجزوم بلما، والتعبير بلما للدلالة على أن ذوقهم العذاب على شرف الوقوع. وقوله ﴿أم عندهم خزائن رحمة ربك﴾ للرد على قولهم ﴿أءُنزل عليه الذكر من بيننا﴾ و«أمْ» فيه منقطعة بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام الإنكارى، وإنما قدم الظرف لأنه محل الإنكار. وإضافة الرب إلى ضمير النبى ﷺ للتشريف واللطف به. ولما استفهم استفهام إنكار فى قوله: «أم عندهم خزائن رحمة ربك»، وكان ذلك دليلاً على انتفاء تصرفهم فى هذه الخزائن، أتى بالإنكار والتوبيخ بانتفاء ما هو أعم فقال: ﴿أم لهم ملك السموات والأرض﴾ أى: ليس لهم شىء من ذلك.

والفاء فى قوله ﴿فليرتقوا﴾ فصيحة. و﴿جند﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هم جند - وما - صفة لجند لإفادة التحقير، و﴿هنالك﴾ صفة ثانية له، و﴿مهزوم﴾ خبر ثان. وقيل: جند مبتدأ وما صلة، وهنالك نعت ومهزوم الخبر. قيل: إن الإشارة بهنالك إلى الارتقاء فى الأسباب أى: هؤلاء إن راموا ذلك جند مهزوم. وقال مجاهد وقتادة: الإشارة إلى مصارعهم فى بدر.

المعنى الإجمالى:

ننكر أن يلقى على محمد القرآن، وأن يختص بالشرف من بين أشرافنا، وليس بأكثرنا مالاً، ولا أعظمنا جاهًا، وليس إنكار هؤلاء للذكر عن علم بل هم فى ريب من القرآن، وهم كَذَبَةٌ فى قولهم ﴿إن هذا إلا اختلاق﴾، بل هؤلاء لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، وسأنزل بهم قريبًا، وهذا هو الحال الذى يزول فيه ريبهم وشكهم، أعند هؤلاء كنوز رحمة ربك يتصرفون فيها كيفما يشاءون حتى يصيبوا بها من شاءوا، ويصرفوها عمن شاءوا، ويتحكموا فيها بمقتضى آرائهم، وأهوائهم، فيتخيَّروا للنبوة بعض صناديدهم، ليس لهم ذلك.

فالنبَّوة عطيَّة من الله تعالى يتفضل بها على من يشاء من عباده - وهو أعلم حيث يجعل رسالته - لا يمنعه مانع، ولا يقهره قاهر، وهو الغالب الواسع العطاء. بل ألهؤلاء سلطان العوالم العلويَّة والسفليَّة؟ إن كان لهم ذلك فليصعدوا فى المعارج التى يتوصل بها إلى العرش، حتى يستووا عليه، ويدبروا أمر العالم، هؤلاء القوم إن راموا ذلك جمع مقهور وجند مكسور. من هؤلاء الجماعات التى تحزَّبت على أنبيائها فى الباطل فقهرناهم وعندما تمت تحزباتهم كانت مصارعهم.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - حسد الكفار للنبى ﷺ.

٢ - إنكارهم القرآن بسبب الحسد.

٣ - ميلهم إلى التحكم فى رحمة الله.

٤ - إنكارهم القرآن ليس عن علم.

٥ - استغراقهم فى الشك.

٦ - هؤلاء لا يؤمنون إلا عند عقاب رادع.

٧ - سيحل بهم العقاب قريبًا.

٨ - لا عطاء إلاَّ من مالك.

٩ - تبكيتهم وتوبيخهم.

******

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ
لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ
فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا
مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾

المناسبة:

لَمَّا ذكر أنه أهلك قبل قريش قرونًا كثيرة لَمَّا كذَّبوا رسلهم، وهدَّد قريشًا وتوعدهم سرد هنا على سبيل الاستئناف بعض هؤلاء الهالكين، تقريراً لمضمون ما قبله وزيادة فى تخويف الكفار وتهديدهم.

القراءة:

قرئ ﴿فواق﴾ بفتح الفاء وبضمها.

المفردات:

﴿عاد﴾ قوم هود وكانوا يسكنون الأحقاف جنوبى الجزيرة العربية. ﴿الأوتاد﴾ جمع وتد بكسر التاء وفتحها، وهو ما رز فى الأرض أو الحائط من خشب. ﴿ثمود﴾ قوم صالح وكانوا يسكنون الحجر. ﴿قوم لوط﴾ أهل سادوم وعامورة من دائرة الأردن. ﴿الأيكة﴾ الغيضة وهى الأشجار الملتفة المجتمعة. ﴿وأصحاب الأيكة﴾ هم قوم شعيب عليه السلام وكانوا يسكنون قرية مدين. ﴿إنْ﴾ نافية بمعنى ما، ﴿فحق﴾ فثبت ووجب. ﴿عقاب﴾ الأصل عقابى أى عذابى. ﴿ينظر﴾ ينتظر. ﴿هؤلاء﴾ الإشارة لأهل مكة. ﴿صيحة﴾ أصل الصيحة الصوت بأقصى الطاقة، والمراد هنا النفخة الثانية. ﴿فواق﴾ بفتح الفاء وضمها قيل: هما لغتان بمعنى واحد وهو الزمان الذى بين حلبتى الحالب ورضعتى الراضع كقوله تعالى ﴿لا يستأخرون ساعة﴾ وقيل: مِن فَواقٍ يعنى من رجوع من أفاق: المريض إذا رجع إلى صحته، وأفاقت الناقة تفيق إفاقة إذا رجعت واجتمعت الفيقة فى ضرعها، والفيقة: اللبن الذى يجتمع بين الحلبتين.

وقال الفراء: ﴿فوَاق﴾ بالفتح، الإفاقة والاستراحة كالجواب من أجاب، وأمَّا المضموم فاسم لا مصدر، والمشهور الأول أنهما بمعنى واحد. ﴿قطنا﴾ أى: نصيبنا فالقط: الحظ والنصيب كما قال الفراء. وأصل القط القطعة من الشىء من قطه إذا قطعه، ويطلق على الصحيفة بالجائزة لأنها قطعة من القرطاس: **ومنه قول الشاعر:**

وَلا المَلِكُ النُّعْمَانُ يَوْمَ لَقِيتُهُ ... بِنِعْمَتِهِ يُعْطِى القُطُوطَ وَيُطْلِقُ

التراكيب:

قوله تعالى ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله، وتأنيث قوم باعتبار معناه، وهو أنهم أمة وطائفة وجماعة، وقوله ﴿ذو الأوتاد﴾ أى: صاحب الأوتاد، قيل: المراد أنه اتخذ أربعة أوتاد يشد إليها يدى ورجلى من يريد تعذيبه، وقيل معناه: ذو الملك الثابت، شبه ثبوت الملك بثبوت البيت المطنب بأوتاده. ومنه قول **الأفوه العوذى**:

وَالبَيْتُ لاَ يُبْتَنَى إلاَّ عَلَى عَمَدٍ ... وَلا عِمَادَ إذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

وكقول **الأسود بن يعفر**:

وَلَقَدْ غَنَوا فِيهَا بِأَنْعَم عِيشَةٍ ... فِى ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ

وقال ابن عباس فى رواية عطية: الأوتاد: الجنود يقوُّون ملكه كما يقوى الوتد الشىء. وقوله تعالى: ﴿أولئك الأحزاب﴾ الظاهر أن الإشارة فيه راجعة إلى أقرب مذكور وهم: قوم نوح، ومن عطف عليهم، وفيه تفخيم لشأنهم، وإعلاء لهم على من تحزَّب على رسول الله ﷺ ومعناه: هؤلاء الأقوياء لَمَّا كذَّبوا الرسلَ عوقبوا، وأنتم كذبتم كتكذيبهم مع أنكم أضعف منهم. ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ والأحزاب خبره، والجملة: بدل من الطوائف المذكورة، ويجوز أن يكون أولئك مبتدأ والخبر ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ مع حذف العائد والتقدير: أى كلهم أو كل منهم والجملة مستأنفة لتقرير مضمون ما قبلها. وقوله ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ يجوز أن تكون الجملة خبرًا كما مرّ، ويجوز أن تكون استئنافية لتقرير تكذيبهم على أبلغ وجه، وتمهيد ما عقب به، وكل مبتدأ وإلا استثناء مفرغ، وجملة ﴿كذَّب﴾ الخبرُ، أى ما كل واحد منهم محكومًا عليه بحكم أو مخبرًا عنه بخبر إلا بأنه «كذَّب» الرُّسلَ؛ لأنَّ الرسل يصدق بعضهم بعضًا، وكلهم متفقون على الحق، فتكذيب كل واحد منهم تكذيب لهم جميعًا، ويجوز أن يكون من مقابلة الجمع بالجمع فيقتضى القسمة آحادًا، وعليه فالمعنى ما كل واحد منهم محكومًا عليه بحكم أو مخبرًا

عنه بخبر إلا بأنه كذب رسوله. والحصر هنا على سبيل المبالغة كأن سائر أوصافهم بالنظر إلى ما أثبت لهم بمنزلة العدم، فيدل على أنهم غالون فى التكذيب. ويدل على ذلك أيضًا تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه، وتنويع تكريره بالجملة الفعلية ألا وهى «كذبت» وبالاسمية الاستئنافية ثانيًا وهى ﴿إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾، وما فى الاستثنائية من الوضع على وجه التخصيص والتأكيد، فكل هذا يفيد أنواعًا من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبلغه، ولذلك رتب عليه قوله تعالى ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾، وقد وقع عليهم عقاب الله تعالى الذى أوجبته جناياتهم مع تنويع أصناف العقوبات؛ فأغرق قوم نوح بالطوفان، وغشى فرعون وقومه من الْيَمِّ ما غشيهم، وأُهلِكَت عادٌ بالدَّبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف وأصحاب الأيكة بعذاب يوم الظلة. وقوله تعالى: ﴿وما ينظر هؤلاء﴾ شروع فى بيان عقاب كفار مكة بعد بيان عقاب أضرابهم من الأحزاب، فالمشار إليه بهؤلاء أهل مكة، والإشارة به لتحقير شأنهم وتهوين أمرهم، وقوله تعالى: ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ ﴿ما﴾ نافية ولها خبر مُقَدَّم و﴿من﴾ حرف جر صلة جىء به لاستغراق النفى، و﴿فواق﴾ مبتدأ، والجملة فى محل نصب صفة لصيحة.

وقوله ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ استئناف؛ لبيان استهزائهم بالوعيد، وسخريتهم من التهديد؛ ولتقرير مضمون ما تقدَّم من وصف استكبارهم وعنادهم.

المعنى الإجمالى:

ليس تكذيب قريش لك غريبًا فى بابه، فريدًا فى نوعه، ولستَ أولَ من كذَّبه قومه، لقد جحدت أمة نوح رسالته، ومن بعدها عادٌ كذَّبوا هودًا، وثمودُ كذبوا صالحًا، وفرعونُ الجبارُ الشديد الأذى كذَّب موسى، وأهل سادوم وعمورة من دائرة الأردن كذبوا لوطًا، وأصحاب الغيضة أهل مدين كذبوا شعيبًا، أولئك المتحزِّبون المتعصبون حقًا، ما وصفوا بغير تكذيب

رسلهم وجحد رسالات ربهم، فأنزلتُ بهم عقابى، وأحللتُ عليهم غضبى، وهم أشد من أهل مكة قوة، وأكثر منهم جمعًا، فأغرقت قوم نوح بالطوفان، ودمرت فرعون غرقًا فى اليم، وأرسلت على عاد ريحًا صرصرًا فى يوم نحس مستمر. وأخذت ثمودَ صاعقةُ العذابِ الهون، وجعلت عالى أرض سادوم وعمورة سافلها وأرسلت عليهم حجارة من طين، وأخذ أصحاب يوم الأيكة عذاب يوم الظلة.

وما أنتم يا أهل مكة بخير من هؤلاء، وليس لكم براءة فى الزُّبُرِ، وما تنظرون إلاَّ نفخةَ القيامَةِ، تؤمنون لديها، وتحاسبون عندها، وتعاقبون فيها، العقاب الشديد الذى لا يخطر لكم على بال، ولا يمر منكم على خيال.

ولقد سخر هؤلاء الفجرة من هذا الوعيد الشديد، واستهزءوا بهذا التهديد، وقالوا: ربَّنَا عَجِّلْ لنا نَصِيبَنَا منه قبل يوم القيامة.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تسلية النبى ﷺ.

٢ - كانت الأمم السابقة أقوى من أهل مكة.

٣ - طغيان فرعون وشدة إيذائه للمؤمنين.

٤ - أن تحزُّب السابقين هو التحزب.

٥ - أخص صفات الكفار التكذيب.

٦ - عقاب المكذِّبين فى العاجلة.

٧ - الإشارة بعدم استئصال أهل مكة.

٨ - سهولة إحياء الموتى.

٩ - الوعيد الشديد لأهل مكة.

١٠- سخريتهم واستهزاؤهم بالوعيد.

قال تعالى: ﴿اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ ۖ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾
إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ
مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ
وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾

المناسبة:

لَمَّا ذكر اللهُ تعالى في الآية السابقة استخفاف أهل مكة بالوعيد، وما تلفَّظوا به من قول ينمُّ عن خبث طوية، مع تهديدهم رسول الله ﷺ بالقتل، كما روى في بعض روايات أسباب النزول، أمر الله نبيه في هذه الآية بالصبر على أذاهم.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿والطيرَ محشورةً﴾ بنصبهما، وقرئ برفعهما.

المفردات:

﴿اصبر﴾ احبس نفسك عن الجزع. ﴿داود﴾ من مشاهير أنبياء بنى إسرائيل، وممن أوتوا الملك منهم. ﴿الأيد﴾ مصدر آد الرجل يئيد أيْدًا وإيادًا بكسر الهمزة إذا قوى واشتد، ومنه قولهم: أيَّدك الله تأييدًا. ﴿أوَّاب﴾ رجّاع يعنى لمرضاة الله تعالى. ﴿سخرنا﴾ أتبعنا. ﴿يسبحن﴾ ينزهن الله تعالى، ويقدسنه بصوت يتمثل لداود عليه السلام، فكان إذا سبَّح جاوبته الجبال بالتسبيح كما روى عن ابن عباس. ﴿العشى﴾ قال الراغب: من زوال الشمس إلى الصباح، وقيل المراد هنا: وقت العشاء الأولى يعنى المغرب. ﴿الإشراق﴾ وقت إضاءة الشمس وصفاء نورها، يقال: شرقت الشمس: إذا طلعت، وأشرقت: إذا أضاءت وصفت. ﴿محشورة﴾ مجموعة إليه. ﴿شددنا﴾ قوينا.

﴿آتيناه﴾ أعطيناه ومنحناه. ﴿الحكمة﴾ النبوة وكمال العلم والإصابة فى الأمور. ﴿فصل الخطاب﴾ البيان الشافى فى كل قصد، وقيل البينة على مَنْ ادَّعى واليمين على من أنكر، وقيل: القضاء بين الناس بالحق، وقيل: كلمة «أما بعد».

التراكيب:

قوله تعالى ﴿إنه أواب﴾ تعليل لكونه ذا الأيد، ودليل على أن المراد به القوة فى الدين، وقوله ﴿إنَّا سخرنا الجبال﴾ استئناف مسوق لتعليل قوته فى الدين، ويجوز أن يكون استئنافًا لبيان القصة أو التمهيد لها. وقوله ﴿معه﴾ متعلق بسخرنا، ويجوز أن يتعلق بقوله ﴿يسبحن﴾، وإنما قال معه، ولم يقل له كما قال ﴿ولسليمان الريح﴾ لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلى فيها إليه كتسخير الريح لسليمان، بل بطريق الاقتداء به، والمشاركة فى العبادة معه. وقوله: ﴿يسبحن﴾ فى موضع نصب على الحال من الجبال، وقد وُضع موضع مسبحات لإفادة الاستمرار التجددى، وأنها يحصل منها التسبيح حالاً بعد حال، وقيل: إن جملة ﴿يسبِّحن﴾ مستأنفة لبيان التسخير كأن سائلاً سأل: كيف كان تسخيرها؟ فقيل: يسبحن، وقوله ﴿والطير﴾ على قراءة النصب معطوفة على الجبال، و﴿محشورةً﴾ حال من الطير؛ والعامل سخرنا، وإنما لم يؤت بالحال فعلاً مضارعًا كالحال السابقة أعنى (يسبحن) لأنه لم يُرد أنها تُحشر شيئًا فشيئًا إذ حاشرُها هو الله تعالى؛ فحشرها جملةً أدل على القدرة. وأما على قراءة الرفع فيهما، فالطير مبتدأ ومحشورة خبره. وقوله ﴿كل له أواب﴾ استئناف مقرر لمضمون ما قبله، وإنما وُضع الأواب موضع المسبح؛ لأن الأواب هو التواب، وهو الكثير الرجوع إلى الله، ومن دأبه إدامة التسبيح، والضمير فى قوله ﴿له﴾ قيل: لله تعالى ومعناه: وكلٌ من داود والجبال والطير لله تعالى كثير الرجوع مديم التسبيح. وقيل: الضمير لداود؛ أى كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود أوّاب، والأول أظهر. وقوله ﴿وآتيناه الحكمة وفصل

الخطاب﴾ مفيد أن الله تعالى جمع لداود عليه السلام بين كمال الفهم وكمال النطق.

المعنى الاجمالى:

لا تفزع يا محمد بسبب هذه المقولات المؤذية ، ولا تجزع لما يتجدد من أمثالها، وتذكَّر قصة عبدنا الصالح التقى صاحب القوة فى الدين، الأواب إلى الله تعالى؛ لقد أتبعنا الجبال معه حال كونها تقدس الله تعالى بتقديسه وتجاوبه فى تسبيحه، فى طرفَىْ نهاره، وكذلك أتبعنا الطير حال كونها مجموعة إليه، كل واحد من الجبال والطير لأجل تسبيح داود مسبح، وقد قوَّينا سلطانه، وأعطيناه النبوة، ومنحناه كمال العلم، وتمام الفهم، وملَّكناه زمام الفصاحة.

ما ترشد إليه الآيات:

١- الصبر على الأذى.

٢- التأسِّى بالصالحين.

٣- قوة داود فى دينه ودنياه.

٤- كثرة رجوعه إلى الله.

٥- اتباع الجبال والطير له.

٦- كمال قدرة الله تعالى.

٧- تسبيح الجبال والطير بحمد ربها.

٨- قوة سلطان داود.

٩- نبوّته، وكمال علمه، وثقوب فهمه.

١٠- فصاحته عليه السلام.

******

قال تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا
الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ
خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ
وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً
وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ
لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي
بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ
مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ
(٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ
(٢٥) ﴾

المناسبة:

بعد أن عرَّف بصاحب القصة، ووصفه فى الآيات السابقة، وأثنى عليه ذكر القصة التى سيقت الآيات السابقة تمهيدًا لها.

القراءة:

قُرِئ ﴿لا تُشْطِطْ﴾ بضم التاء وكسر الطاء الأولى، وقرئ ﴿تَشطُط﴾ بفتح التاء وضم الطاء الأولى، وقرئ ﴿وعزَّنى﴾ بتشديد الزاى، وقرئ و﴿عازَّنى﴾ بألف بعد العين وتشديد الزاى. وقرئ ﴿لَيَبْغى﴾ بسكون الياء التى بعد الغين، وقرئ: ﴿ليبغىَ﴾ - بفتح الياء الأخيرة - وقرئ: ﴿ليبغِ﴾ - بحذف الياء - وقرئ: ﴿فَتنَّاه﴾ - بفتح الفاء والتاء وتشديد النون - وقرئ - بفتح

الفاء والتاء والنون الخفيفة - وقرئ: ﴿فتّناه﴾ - بتشديد التاء - وقرئ: ﴿حُسْنَ﴾ - بالنصب - وقرئ: بالرفع.

المفردات:

﴿أتاك﴾: جاءك. ﴿نبأ﴾: خبر. ﴿الخصم﴾: هو فى الأصل مصدر خصم بمعنى خاصم، وأصل المخاصمة على ما قال الراغب: أن يتعلق كل واحد بخصم الآخر أى بجانبه، ولذا يستعمل الخصم للواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث، والمراد هنا الجمع. ﴿تسوروا﴾ يقال: تسور السور أو الحائط تسنمه وعلا ذروته، والسور: الجدار المرتفع. ﴿والمحراب﴾: البيت المرتفع أو القصر الشامخ أو مكان العبادة، ويقول الذين يفسرون المحراب بالقصر: إنه سُمى بذلك لأنه يحارَب من أجله، وأما المحاريب المعروفة الآن بما يدخل فى الحائط على سَمْت القبلة ليتبين الناس منها جهة القبلة فيقول المفسرون: إنها شىءٌ لم يكن قد عُرِف فى الصدر الأول. ﴿فزع﴾: ذعر وفرق. ﴿خصمان﴾: فريقان متخاصمان. ﴿بغى﴾: تعدَّى وجار. ﴿فاحكم﴾: فافصل. ﴿بالحق﴾: بالعدل. ﴿ولا تُشطط﴾ - بضم التاء - من أشطط يُشطط إشطاطا إذا تجاوز الحد، والمعنى: ولا تَجُرْ. قال أبو عبيدة: شططت فى الحكم وأشططت إذا جرت. فهذا مما اتفق فيه فعلَ وأفعل، وأما من قرأ: ﴿تَشطُط﴾- بفتح التاء وضم الطاء الأولى - فهو من شطَّ بمعنى أشط، كما قال أبو عبيدة. ﴿واهدنا﴾: وأرشدنا . ﴿سواء الصراط﴾: و سط الطريق، والمراد طريق الحق ونهج العدل. ﴿أخى﴾: أى فى الدين أو فى الصحبة أو فى الشركة والخلطة. ﴿نعجة﴾: شاة، وهى الأنثى من الضأن وبقر الوحش، والمراد بها هنا أنثى الضأن. ﴿أكفلنيها﴾: أعطنيها، وضُمَّها إلىَّ حتى أكفلها، وأرعاها. ﴿وعزَّنى﴾: وغلبنى. ومنه قول الشاعر:

قطاةٌ عَزَّها شَرَكٌ فباتتْ تجاذبهُ وقد علقَ الجناح

ومن قرأ: ﴿وعازَّنى﴾، فالمعنى: وغالبنى. ﴿الخطاب﴾: الكلام.

﴿ظلمك﴾: تعدى عليك. ﴿بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾: أى إضافة شاتك إلى شائه على سبيل السؤال. ﴿الخلطاء﴾: الشركاء الذين خلطوا أموالهم وماشيتهم. ﴿ليبغى﴾: ليتعدى. ﴿ظن﴾: قام بنفسه ورجح فى خاطره. ﴿فتناه﴾: بلوناه و اختبرناه وأوقعناه فى الفتنة. ﴿فاستغفر﴾: فطلب المغفرة. ﴿خرَّ﴾: هوى إلى الأرض. ﴿راكعًا﴾: أى ساجدًا كما قال الشاعر:

فخرَّ على وجهه راكعًا وتاب إلى الله مِنْ كل ذَنْبِ

﴿وأناب﴾: ورجع إلى ربه عز وجل. ﴿غفرنا﴾: سترنا ومحونا. ﴿لزلفى﴾: درجة عالية ومنزلة رفيعة. ﴿وحسن مآب﴾: وجميل مرجع.

التراكيب:

قوله تعالى ﴿وهل أتاك نبأ الخصم﴾ الواو قيل للعطف على ﴿إنا سخرنا﴾ من قبيل عطف القصة على القصة، وقيل على ﴿اذكر﴾، ويجوز أن تكون للاستئناف. فبعد أن أثنى على داود استأنف ذكر قصته، و﴿هل﴾ للاستفهام والمقصود به التشويق إلى ما بعده لكونه أمرًا بديعًا عجيبًا غريبًا، وقوله: ﴿إذ تسوروا﴾ إذ ظرف لمحذوف تقديره: نبأ تخاصُمِ وتحاكُمِ الخصم إذ تسوَّروا. قال أبو حيان وغيره: وليس ظرفًا لأتاك؛ لأن إتيان النبأ رسول الله ﷺ لا يقع إلا فى عهده لا فى عهد داود عليه السلام، وليس ظرفًا للنبأ لأن النبأ واقع فى عهد داود عليه السلام لا فى عهده ﷺ، وإن أريد بالنبأ القصة فى نفسها لم يكن ناصبًا، فتعيَّن أن يكون ظرفًا لمحذوف.

وقوله ﴿إذ دخلوا﴾ إذ: بدل من إذ الأولى أو ظرف لتسوروا. والفاء فى «ففزع» للسببية، وقوله ﴿قالوا: لا تخف﴾ استئناف بيانى نشأ عن سؤال مقدر مرتب على فزعه عليه السلام كأنه قيل: فماذا قال الخصم عند مشاهدتهم لفزعه؟ فقيل: قالوا: لا تخف، وقوله ﴿خصمان﴾ يحتمل أن يكون هذا موصولاً بقوله ﴿لا تخف﴾ مبادرةَ بإخباره عليه السلام بما أتيا من أجله، ويحتمل أن يكون سألهم: ما شأنكم؟ فقالوا: خصمان. وخصمان: خبر لمبتدأ

محذوف أى نحن خصمان، وجملة ﴿بغى بعضنا على بعض﴾ فى موضع رفع صفة لخصمان، وقد ثُنى هنا باعتبار الفوج والفريق، وجُمع فى قوله ﴿قالوا﴾ لملاحظة أفراد الفريقين. والفاء فى قوله ﴿فاحكم بيننا﴾ فصيحة، وقوله ﴿ولا تشطط﴾ تأكيد لمعنى الجملة قبله، وكذلك قوله ﴿واهدنا إلى سواء الصراط﴾ .

وقوله ﴿إن هذا أخى﴾ استئناف لبيان ما فيه الخصومة . وقوله ﴿أخى﴾ يجوز أن يكون بدلاً أو عطف بيان أو خبرًا لإِنَّ. وقوله تعالى ﴿لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه﴾ جواب قسم محذوف جىء به لقصد المبالغة فى إنكار فعل المدعى عليه وتهجين طمعه فى نعجة ليس لصاحبها سواها مع أن له قطيعًا من الغنم. وسؤال: مصدر مضاف لمفعوله. وإنما عُدِّى إلى نعاجه بإلى لأنه متضمن لمعنى الضم والإضافة وقوله ﴿ليبغى﴾ بسكون الياء الأخيرة: جملة فعلية فى محل رفع خبر إِنَّ، واللام للتوكيد، وأما على قراءة فتح الياء الأخيرة: فقد خرجت على تقدير حذف النون الخفيفة وأصله: (ليبغين) على حد قول طرفة ابن العبد:

اضربْ عنك الهمومَ طارقها ضربك بالسيف قونس الفرس

يعنى اضربن. ويكون الكلام حينئذ على تقدير: قسم محذوف وهو وجوابه خبر لإِنَّ. وأما قراءة ﴿ليبغ﴾ فإنها بحذف الياء للتخفيف على حد قوله ﴿والليلِ إذا يسر﴾ ومنه قول الشاعر:

محمد تفدِ نفسَك كلُّ نفسٍ إذا ما خِفْتَ مِن أمرٍ تبالا

وقوله تعالى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ استثناء من الجنس، والمستثنى منه ﴿بعضهم﴾، وقوله ﴿وقليل ما هم﴾ الجملة اعتراضية، تذييلية للتأسف على قلة المؤمنين والتعجب من هذه القلة، وقليل: خبر مقدم، ﴿وما﴾ صلة لإفادة التعجب وهم: مبتدأ مؤخر، وإنما أفادت التعجب لأن الشىء إذا بولغ فيه بإبهامه كان مظنةً للتعجب منه كأنه قيل: ما أقلهم.

و﴿ما﴾ فى قوله: ﴿إنما فتناه﴾ هى الكافة ،وهى التى تهيِّئ إِنَّ وأخواتها

للدخول على الأفعال، فهى صلة، والمعنى «وظن داود أنا فتناه». والفاعل على قراءة تشديد النون هو الله تعالى، وعلى قراءة التخفيف هو الخصمان، والفاء فى قوله ﴿فاستغفر ربه﴾ لإفادة مسارعته عليه السلام إلى التوبة وتعقيب الفتنة بالاستغفار، و﴿راكعا﴾ حال مقدرة. و﴿ذلك﴾ مفعول غفرنا وقيل: خبر لمبتدأ محذوف أى الأمر ذلك. والاشارة إلى ما فتن به. و﴿حسن مآب﴾ على قراءة النصب: معطوف على اسم إِنَّ، وبالرفع. مبتدأ والخبر محذوف تقديره له.

المعنى الاجمالى:

وهل جاءك يا محمد خبر تخاصم وتحاكم المتخاصمين؛ إذ تسنَّموا حائط قصر داود عليه السلام وقت أن أرادوا الدخول عليه، لقد أخافه دخولهم على هذه الصورة الغريبة، فلما رأوه ذُعِر منهم طمأنوه بقولهم له: لا تخف أيها الملك: نحن فريقان متخاصمان تعدَّى بعضنا على بعض فافصل بيننا بالعدل ولا تَجُر فى حكمك، وأرشدنا إلى طريق الحق و منهج العدل. ثم تقدم إليه المظلوم وقال - مشيرا إلى من ظلمه -: إِنَّ هذا شريكى له تسعٌ وتسعون شاة ولى شاة واحدة. فطلب منى أن يكفلها وقهرنى فى طلبه. فقال داود: لقد تجاوز حده، وتعدى عليكَ بسبب طلب ضم شاتكَ إلى شائه. ثم وعظهم عليه السلام فقال: وإن كثيراً من الشركاء ليتعدَّى بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وما أقلهم!.

ولما خلا داود إلى نفسه أنَّبها على الفزع منهم ولامها على الخوف من الخلق، وقام بخاطره أنه فُتن للفزع من البشر، فطلب من ربه المغفرة، وسقط إلى الأرض ساجدًا، فتجاوزنا عن فزعه، وإن لداود عندنا لدرجة رفيعة ومنزلة عالية وجميل مرجع.

هذا وقد ساق الله تعالى هذه القصة الكريمة؛ لينبه نبيه محمدًا ﷺ إلى أن لا يفزع من كفار مكة الذين يتوعدونه، ولا يخاف منهم، ويقول له: اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود التقى الصالح صاحب القوة فى الدين

الأواب إلى الله تعالى، الذى سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق والطير محشورة كل له أواب، وشددنا مُلْكَه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب لَمَّا فزع عند دخول الخصمين عليه وتسورهما المحراب ظن أنه فتن، وأنه قصر فى حق سيده العظيم، فاستغفر ربه وخر راكعًا، وأناب؛ فلا تفزع ولا تخف.

وقد ذكر جمهور المفسرين هنا قصة عجيبة غريبة نقلاً عن اليهود - لعنهم الله تعالى - فقالوا إن داود كان فى المحراب فوجد طائرًا جميلاً، فمشى خلفه حتى صعد فوق المحراب، فوجد امرأة أوريا تغتسل، فأعجب بجمالها، وأراد أن يضمها إليه، فبعث زوجَها أوريا إلى الحرب حتى قُتِلَ وأخذها لنفسه وكان له تسع وتسعون امرأة غيرها، وليس لأوريا إلا هذه المرأة فقط، فأرسل الله تعالى له مَلَكين فى صورة متخاصمين وتسوروا المحراب على داود ففزع منهم، فقالوا له: ﴿لا تخف. خصمان بغى بعضنا على بعض﴾ إلى قوله ﴿إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة ولى نعجة واحدة﴾ - وقصدوا بالنعاج النساء - ﴿فقال: أكفلنيها وعزنى فى الخطاب﴾ فقال داود: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن رام ذلك ضربنا منه هذا وهذا، (وأشار إلى أنفه وأصل جبهته). فقال الملكان - وهما صاعدان إلى السماء - حكمت على نفسك، أنت تستحق أن يُفعل بك ذلك. فأيقن أنه ابتُلى بسبب امرأة أوريا، واستغفر ربه وخر راكعًا وأناب. وبكى بكاءً مراً حتى خرج العشب من أثر دموعه، وكان يسبِّح فى سجوده الطويل المرير حتى تاب الله عليه.

وهذه القصة لا أصل لها من الصحة، بل هى مختلقة وباطلة؛ لأنها لو صحت لجاز وقوع الكبائر من الأنبياء عليهم السلام مع أنهم معصومون من ذلك، فضلاً عن أنه لو نسب إلى رجل من العوام لتبرأ منه، فكيف يحدث من نبى عظيم كداود عليه الصلاة والسلام؟.

والقرآن العظيم كالدر النظيم؛ كل آية منه لها صلة ومناسَبة لما قبلها ولما بعدها؛ فلا يعقل أن يكون المقام مقام تشجيع وتسلية للنبى ﷺ من توعد الكفار له ثم يقول له: اذكر قصة العاشق المحب داود .. برَّأه الله مما قالوا إذ

كان عند الله وجيهًا.

ومصـدر هذه الأباطيل أن اليهـود - لعنهم الله - لما عـجزوا عن مـحاربة الإسلام بالأسنة والرماح، أظهروا اعـتناق الإسلام وأبطنوا الكفر والعزم على محاربة دعوة الله تعالى بسـلاح ممقوت رذيل هو سلاح الدس على الله تعالى فى كتبه المنزلة والطعن فى رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ولا يهولنك أن القصة على هذا مذكورة فى التوراة. و أن فيها «وَقُبِح داودُ فى عين الرب»؛ فالله تعالى بين لنا أنهم غيَّروا وبدَّلوا تبديلاً.

ومن جمـيل ما يُروى أنه كان عمـر بن عبدالعزيز جـالسًا وعنده رجل من أهل الحق وبالقرب منهما رجل قاصٌ يقص على الناس هـذه القصة، وينسبها إلى داود عليه السلام، فـقال الرجل للقاص: يا هذا إن كان الأمر كـما تقول وستر اللهُ عـبدَه داود وكنَّى وقال نعجة فـما يحل لك أن تفضح نبيَّ اللهِ داود عليه السلام، وإن كان الأمرُ غير ذلك فـقد افتريتَ على نبى الله داود. فقال عمر بن عبدالعزيز: هذا الكلام أحب إلىَّ مما طلعت عليه الشمس.

ما ترشد إليه الآيات:

١- فزع داود عند دخول الخصمين.

٢- الأسلوب البدوى الجاف.

٣- كثرة بغى الشركاء غير المسلمين.

٤- قلة المؤمنين.

٥- سرعة خاطر داود عليه السلام.

٦- مسارعة الصالحين بالإنابة إلى الله.

٧- أن الهوِىَّ إلى الأرض لِلَّه عند الإنابة من عمل الصالحين.

٨- أن الله تجاوز لداود عما فُتن به.

٩- منزلة داود عند الله.

١٠- حسن مرجعه فى الآخرة.

١١- الاعتبار والتأسِّى.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ
عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾
وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ
فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ
﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟
ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾

المناسبة:

بعد أن ساق الله تعالى قصة داود، نبه إلى مكانته عنده، واصطفائه له، وأن منزلته بعد الفتنة والتوبة منها كمنزلته قبلها، وأن فتنته لم تسلب خلافته.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿يَضلون﴾ بفتح الياء، وقُرِئَ بضمها، وقرأ الجمهور ﴿مباركٌ﴾ بالرفع، وقرئ ﴿مباركًا﴾ على النصب، وقرأ الجمهور ﴿ليَدَّبروا﴾ بالياء وتشديد الدال. وقرئ ﴿ليتدبروا﴾، وقرئ ﴿لتدبروا﴾ بالتاء وتخفيف الدال.

المفردات:

﴿خليفة﴾ أى مستخلفًا على الملك والحكم بين الناس بمعنى: نصبناك حاكمًا لتنفيذ أوامرنا أو صيرناك نائبًا عنا. ﴿بالحق﴾ بالعدل، ﴿الهوى﴾ ميل النفس إلى شهوتها ولو عارَضَ الشرعَ، وقد يراد به الشيء المهوى كما فى قول جعفر بن علبة:

هَوَاىَ مع الرَّكْبِ اليمانينَ مُصْعِدٌ   جنيب وجثمانى بمكةَ مُوثَقُ

﴿يضلك﴾ يصرفك ويبعدك، ﴿سبيل الله﴾ طريقه المستقيم، ﴿شديد﴾ شاق، ﴿نسوا﴾ تركوا بمعنى: أنهم لم يذكروه ولم يعملوا، ﴿يوم الحساب﴾ يوم القيامة والنقاش والجزاء، ﴿خلقنا﴾ أنشأنا وأوجدنا، ﴿باطلاً﴾ لعبًا وعبثًا وبلا حكمة، ﴿ذلك﴾ إشارة إلى خلقها للعب والعبث وعدم الحكمة.

﴿ظن الذين كفروا﴾ أى مظنونهم الخاطر ببالهم والقائم بنفوسهم، ﴿فويل﴾ فهلاك ودمار أو هو واد فى جهنم. ﴿مبارك﴾ أى كثير المنافع، ﴿ليدبروا﴾ ليتأملوا وينظروا . ﴿وليتذكر﴾ وليتعظ، ﴿أولوا الألباب﴾ أصحاب العقول.

التراكيب:

قوله تعالى: ﴿يا داود إنا جعلناكَ خليفة فى الأرض﴾ يجوز أن يكون مستأنفًا لبيان زلفاه، ويجوز أن يكون مقولاً لقول مقدر معطوف على غفرنا، والكاف: مفعول أول لجعلنا، و﴿خليفة﴾ المفعول الثانى، وقوله ﴿فاحكم بين الناس بالحق﴾ الفاء تفريعية، وقد فرَّع الأمر بالحكم على ما سبقه؛ لأن جعله خليفة يقتضى الحكم بالعدل.

والمراد بالأمر مداومة داود للحكم بالحق، وتنبيه لغيره ممن ولى أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق. وهو عليه السلام لا يحكم إلا بالحق، وكذلك قوله ﴿ولا تتبع الهوى﴾ نهىٌ له يقصد منه المداومة على ترك اتباع الهوى، وتنبيه لغيره ممن وَلِىَ أمور الناس ألاَّ يتبع فى حكمه الهوى، وقوله ﴿فيضلك عن سبيل الله﴾ بنصب المضارع بأن مضمرة بعد فاء السببية لكونه فى جواب النهى، ويجوز أن تكون الفاءُ للعطف على النهى، وإنما فُتحت اللام لأجل التقاء الساكنين. والفاعل فى ﴿فيضلك﴾ ضمير الهوى أو ضمير المصدر المفهوم من قوله ﴿ولا تتبع الهوى﴾ أى فيضلك الهوى أو اتباع الهوى. وقوله ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ تعليل لما قبله ببيان غائلته، وكان مقتضى الظاهر أن يقول - إن الذين يضلون عنه - ولكنه أظهر فى موضع الإضمار فقال ﴿إن الذين يضلون عن سبيل الله﴾ لزيادة التقرير، والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه. وقوله: ﴿لهم عذاب شديد﴾ لهم: خبر مقدم، وعذاب:

مبتدأ مؤخر، وشديد: صفته، والجملة فى محل رفع خبر إنَّ، والباء فى قوله ﴿بما نسوا يوم الحساب﴾ سببية و«ما» مصدرية ويوم الحساب: مفعول لنسوا، والمعنى: لهم عذاب شديد لعدم ذكرهم يوم الحساب ويكون قوله: بما نسوا يوم الحساب .. تعليلاً صريحًا لثبوت العذاب الشديد لهم بنسيانهم يوم الحساب وقيل: إن (يوم الحساب) ظرف لقوله ﴿لهم﴾ ففى الكلام تقديم وتأخير والأصل: لهم يوم الحساب عذاب شديد بما نسوا، وعليه؛ فمفعول نسوا محذوف مفهوم من السياق تقديره: بما نسوا سبيل الله، والأول أولى. ومن قرأ ﴿يُضلون﴾ بضم الياء فهى على حذف المفعول . وقوله ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً﴾ كلام مستأنف لتقرير مضمون ما قبله من أمر الحساب. ويجوز أن تكون الجملة فى موضع الحال من فاعل نسوا. وقد جىء بها لتفظيع أمر النسيان كأنه قيل: بما نسوا يوم الحساب حالة وجود دلائله ووضوح حقيقته. و﴿باطلاً﴾ منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف أى خلقًا باطلاً، ويجوز أن يكون حالاً أى: مبطلين أو ذوى باطل. كما يجوز أن يكون مفعولاً لأجله أى لأجل الباطل. والإشارة بقوله ﴿ذلك ظن﴾ راجعة إلى كون خلقها باطلاً. والكفار وإن أقروا أن الله خالق السموات والأرض ظانون أن خلق ذلك ليس لحكمة وأنها خُلقت عبثًا ولعبًا، ولذلك قال تعالى ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ وقوله ﴿فويل للذين كفروا﴾ مبتدأ وخبر، والجملة دعائية، والفاء لإفادة ترتيب ثبوت الويل لهم على ظنهم الباطل. وكان مقتضى الظاهر أن يقول ﴿فويل لهم﴾ وإنما وضع الاسم الموصول موضع الضمير لإشعار جملة الصلة بسبب استحقاقهم الويل. ومِن فى قوله: ﴿من النار﴾ بمعنى - فى - وقيل تعليلية كما فى قوله ﴿فويل لهم مما كتبت أيديهم﴾ أى فويل لهم بسبب النار المترتبة على ظنهم وكفرهم. وأمْ فى قوله ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض﴾ منقطعة بمعنى (بل) وهمزة الإنكار، والإضراب للانتقال من تقربر أمر البعث والحساب بنفيه خلق العالم لغير حكمة إلى تقريره وتحقيقه بما فى الهمزة من إنكار التسوية بين الفريقين، ونفيها على أبلغ وجه وآكده،

وقوله تعالى ﴿أم نجعل المتقين كالفجار﴾ يجوز أن يراد بهذين الفريقين عين الأولَين، ويكون التكرار باعتبار وصفين آخرين هما أدخَلُ فى إنكار التسوية من الوصفين الأولين، ويجوز أن يكون انتقالاً من إثبات الحساب بلزوم استحالة التسوية بين الفريقين المذكورين على الإطلاق إلى إثباته بلزوم ما هو أظهر منه استحالة؛ وهو التسوية بين أتقياء المؤمنين وفجرة الكافرين.

وقوله تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ مستأنف لبيان ما ترسم به الطريق التى يكون سالكوها من أهل السعادة يوم الحساب . و فى ذكر الكتاب هنا بهذا الوصف تنبيه إلى أن القصة السابقة فيها كفاية لأصحاب العقول ولقريش لو كانوا يعقلون، ومع ذلك يذكر بعدها بعض القصص إمعانًا فى النصح، ومبالغة فى الإعذار، وفيه إشارة إلى إعجازهم بالقرآن وتحديهم به.

و﴿كتاب﴾ خبر مبتدأ محذوف أى: هذا كتاب، و﴿أنزلناه﴾ صفته ، وقوله ﴿مبارك﴾ على قراءة الرفع يصح أن يكون خبرًا لمبتدأ محذوف أيضًا أو هو خبر ثان، ولا يجوز أن يكون نعتًا ثانيًا عند الجمهور لأن الكثير الغالب أن يتقدم الوصف الصريح على غير الصريح، وعلى غير الغالب يجوز أن يعرب مبارك وصفًا ثانيًا ومنه قوله تعالى ﴿فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين﴾.

وقرِىء ﴿مباركًا﴾ بالنصب على أنه حال من مفعول أنزلناه، وهى حال لازمة لأن البركة لا تفارقه، وقوله ﴿ليدَّبروا﴾ متعلق بأنزلنا. وضمير الفاعل فى ﴿ليدبروا﴾ لأولى الألباب على سبيل التنازع مع إعمال الثانى، أو للمؤمنين والمفسدين. ومن قرأ ﴿لتدَّبروا﴾ فالخطاب للنبى ﷺ وعلماء المسلمين.

المعنى الاجمالى:

يا داود إنا نصبناك حاكمًا لتنفيذ أوامرنا؛ فافصل فى قضايا الناس بالعدل، واتَّبع نظام الشرع، ولا تخضع لميول نفسك وما تهوى؛ فإن الهوى يحيد بك عن صراط الله المستقيم، ومنهجه القويم. إن الذين يحيدون عن صراط الله المستقيم، وينسون يوم الحساب العظيم، قد هُيِّئَ لهم عقاب قاسٍ لا يخطر على البال، ولا يدور فى الخيال بسبب تركهم العمل ليوم محاسبة الخلائق

على ما قدموا. إن يوم الحساب كـائنٌ لا محالة؛ لأنه لو لم يكن حساب ولا بعث لكان خلقُ السمـوات والأرض وسائر العوالم عـبثًا ولعبًـا؛ لأنها تكون حينئذ إنما خُلقت للفناء، ولا يخطر هذا إلا ببال الجاحـدين الأشقياء. فهلاك ودمار أو وادٍ فى جـهنم لهؤلاء الجاحدين. إنه لو لم يكن بعـثٌ ولا حسابٌ لاستـوى الصالح والمفـسد، والتـقىُّ والفاجـر، ولا يمكن لعاقـل أن يسوى بينهما؛ فشتـان بين من يغض طرفه إن بدت له جارته، وبين من ينهب النساء للخنا والفجور، وشتان بين مَنْ يمد يد المسـاعدة والإنفاق للفقراء والمساكين، ومَنْ يمد يده لنهب أموال اليتامى والمستضعفين.

هذا كتاب أوحينا به إليك، كثير الخيرات ، عظيم المنافع، لا تفارقه البركة أبدًا، أنزلناه ليتفكروا فى آياته، و ينظروا فى عجائبه و بدائعه، وليتعظ أصحاب العقول.

ما ترشد إليه الآيات:

١- إن داود من خلفاء الله فى الأرض.

٢- وجوب الحكم بالعدل.

٣- عدم جواز الحكم بغير كتاب الله.

٤- الحكم بغير كتاب الله يسبب شقاء العاجلة والآجلة.

٥- الحاكم بغير كتاب الله لا يؤمن بالحساب.

٦- البعث حق ولا بد منه.

٧- منكر البعث يرى أن خلق العالم لعب.

٨- لا ينكر البعث إلا كافر.

٩- إنكار البعث تسوية بين الصالحين والمفسدين.

١٠- القرآن كثير الخيرات جليل المنافع لا ينأى عنه إلا محروم.

١١- يجب تدبر القرآن.

١٢- لا يتعظ به إلا أصحاب العقول.

١٣- فى القصة السابقة كفاية لو كانوا يعقلون.

******

قال تعالى: ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) ﴾

المناسبة:

لمّا قص الله تعالى قصة داود عليه السلام، وبيَّن فضل الله على عباده الصالحين، ذكر قصة ولده سليمان عليه السلام لأنه من تمام نعمة الله على داود عليه السلام، ولزيادة تقرير الغرض الذى سِيقَتْ من أجله قصة داود - عليه السلام وهو طمأنينة قلب النبى ﷺ.

المفردات:

﴿وهبنا﴾ أعطينا ومنحنا. ﴿العبد﴾ الخاضع لربه يعنى: سليمان. ﴿إنَّه﴾ أى سليمان. ﴿أوَّاب﴾ رجَّاعٌ إلى الله. ﴿عرض﴾ أُمِرَّ. ﴿عليه﴾ على سليمان. ﴿بالعشى﴾ هو ما بعد الزوال. ﴿الصافنات﴾ هى الخيل جمع صافنة وهى القائمة على ثلاث، وقد أقامت الرابعة على طرف الحافر استعدادًا للجرى. ﴿الجياد﴾ جمع جواد أو جمع جود كثوب، يطلق على الذكر والأنثى والمراد: السريع السابق الخفيف فى الجرى، وهو بهذين الوصفين يجمع لهذه الخيل بين الوصفين المحمودين فيها واقفة وجارية. ﴿أحببت﴾ آثرت. ﴿الخير﴾ الخيل كما حكى عن قتادة والسدى، وقيل: المال، والظاهر الأول. ﴿حتى﴾ إلى أن. ﴿توارت﴾ اختفت واستترت. ﴿بالحجاب﴾ بما أشرف من الجبل أو الاصطبلات والظاهر الأول. ﴿ردُّوها﴾ أرجعوها، والضمير المنصوب للخيل والمأمور بالرد ساستها. ﴿طفق﴾ شرع. ﴿مسحًا﴾ إمرارًا بيده على ما تلطخ بالغبار؛ لإذهابه وإزالته. ﴿بالسوق﴾ جمع ساق وهو ما بين الكعب و الركبة. ﴿الأعناق﴾ الرِّقاب.

التراكيب:

قوله ﴿ووهبنا﴾ الواو استئنافية . وقوله ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ﴾ المخصوص بالمدح محذوف والتقدير: هو أى سُليمان . وقيل: المخصوص بالمدح داود والظاهر الأول. وقوله: ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح والضمير لسليمان. وقوله ﴿إذ عُرِضَ عليه﴾ العامل فى ﴿إذ﴾ قيل: اذكر، والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه. وقيل: هو ظرف لأوَّاب أو لنعم، والظاهر الأول. والضمير فى ﴿عليه﴾ لسليمان وقوله ﴿بالعَشِىِّ﴾ الباء للظرفية. و﴿الصافنات﴾ نائب فاعل وإنما أخر للتشويق. و﴿الصافنات الجياد﴾ وصفان يوصف بهما المذكر والمؤنث من الخيل. وقوله ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ التعقيب باعتبار أواخر العرض دون أوله. وإنَّما أكد بإن للدلالة على أن اعترافه من صميم القلب. ﴿وحُبَّ الخَيْرِ﴾ مفعول به لأحببت؛ لتضمنه معنى آثرت. و﴿عن﴾ للتعليل كقوله ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣]، و﴿ذكر ربى﴾ مصدر مضاف لفاعله أى: آثرت حب الخيل بسبب ذكر ربى لها، وثنائه عليها، كما قال رسول الله ﷺ: «الخيل معقود فى نواصيها الخير إلى يوم القيامة». . ولعل سبب تسميتها بالخير لغلبة خيرها وجليل منافعها.

وقوله ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ﴿حتى﴾ للغاية بمعنى إلى أن. وهذه الغاية لمقدر مفهوم من النسياق تقديره: واستمرت تعرض عليه حتى توارت بالحجاب. والفاعل فى توارت ضمير ﴿الصافنات الجياد﴾. وقوله: ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ ضمير الفاعل للساسة وضمير المفعول للخيل، والكلام على إضمار القول، والجملة مستأنفة استئنافًا بيانيًا كأن سائلا سأل: فماذا قال سليمان؟ فقيل: قال: ردوها. وقوله تعالى ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء للعطف على مُقَدَّر مفهوم من السياق تقديره: فردوها فطفق مسحا. وإنَّما حُذِفَتْ هذه الجملة؛ لظهورها ولبيان سرعة الامتثال كما فى قوله ﴿فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ

﴿فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠] أى فضرب فانفجرت منه. و﴿طَفِقَ﴾ من أفعال الشروع، ويندر أن يكون خبرها غير مضارع، واسم طفق ضمير سليمان عليه السلام. و﴿مسحًا﴾ مفعول مطلق لفعل مقدر هو خبر طفق، وتقديره: فطفق يمسح مسحًا.. فإن قيل فيه حذف عامل المصدر المؤكد وهوممتنع عند ابن مالك، أجيب بأنه ليس بمؤكد بل هو مفعول مطلق مبين للنوع لتعلق ما بعده به وهو بالسوق أى: فطفق يمسح مسحًا كائنًا بسوق الخيل وأعناقها. وأعرب أبو البقاء ﴿مَسْحًا﴾ على أنه مصدر فى موضع الحال أى ماسحًا وهو مردود لاحتياج طفق للخبر. وإنما مسح سوقها وأعناقها لأن العرق أكثر ظهورًا فيها، فتتلطخ بالغبار، فصار عليه السلام؛ لحبه لها ورفقه بها وشفقته عليها يمر عليها يده لإزالة ما تَلطَّخ بها.

وقد ذهب جماعة من المفسرين إلى طريق شائكة فزعموا أن سليمان - عليه السلام - استعرض الخيل بعد الزوال حتى غابت الشمس، ولها بها عن صلاة العصر، وكانت له، فقال للملائكة: رُدُّوا الشمس علىَّ فردوها عليه فصلى العصر ثم شرع يقطع سوق الخيل وأعناقها؛ لأنَّها هى التى شغلته عن الصلاة ثم تصدَّق بلحمها، فأعطاه الله خيراً منها، وأسرع، وهى الريح تجرى بأمره رُخَاءً حيث أصاب.. ويفسرون ﴿أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ بأن معناها: أحببت الخيل عن الصلاة.

وهذا باطل عاطل فما يكون لسليمان الذى قال الله فيه: نعم العبد.. أن يحب الدنيا وما فيها عن ذكر الله، وما يكون لسليمان أن يقطع سوق الخيل وأعناقها، وما ذنب الخيل إن كان سليمان اشتغل عن صلاة العصر كما يذهب هؤلاء؟! والله تعالى يقول: ﴿مسحًا﴾.. ويأبى هؤلاء إلاَّ أن يقولوا قطعًا..

المعنى الإجمالى:

ومنحنا لداود سليمان ولدًا له وخليفة من بعده إنه يمدح لكثرة رجوعه إلى ربه. اذكر يا محمد وقت أن مَرَّ على سليمان فى وقت العشى الخيل العجيبة

فى وقوفهـا وجريها. لقد أظهر شعـوره نحوها وانطلق قائلاً: إنى آثرت حب الخيل بسبب أن الله ذكرها لى وأثنى عليها، فلمـا بلغت غايتها، واستترت بما أشرف من بعض الجبال أو دخلت اصـطبلاتها نادى ساستها فـقال: أرجعوها إلىَّ . . فأرجعـوها إليه، فشرع يمـسح سوقها وأعناقـها ليزيل ما علـيها من الغبار رحمة بها وشفقةً عليها وحبّاً لها.

ما ترشد إليه الآيات:

١- أن سليمان هو ابن داود.

٢- أنه خليفته من بعده.

٣- ثناء الله على سليمان.

٤- كثرة عبادته.

٥- حرصه على الجهاد.

٦- استعراض الخيل.

٧- استحباب اختيار الأصناف الجيدة من الخيل.

٨- إعلان حب ما يحبه الله.

٩- سرعة امتثال ساسة الخيل لسليمان.

١٠- تواضعه عليه السلام.

******

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ
لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾
فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ
كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا
عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾ ﴾

المناسبة:

بعد أن مدح سليمان عليه السلام - وأثنى عليه، وبيَّن حرصه على الخيل التى هى آلة جهاد أعداء الله، ذكر قصة فتنته - عليه السلام - التى كان سببها شدة حرصه على الجهاد أيضًا.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿الريح﴾ بالإفراد وقرئ ﴿الرياح﴾ بالجمع، وقرأ الجمهور ﴿وحُسْنَ مآب﴾ بالنصب وقرئ بالرفع.

المفردات:

﴿فَتَنَّا﴾ اختبرنا وابتلينا، وذلك بأنه حلف ليطوفن على أربعين أو سبعين امرأة من نسائه تأتى كل واحدة منهن بفارس يحمل السلاح؛ ويجاهد فى سبيل الله عز وجل، ولم يقل إن شاء الله، فطاف عليهن فلم تحمل إلا امرأة جاءت بشق رجل، فَأُخِذَ وأُلْقِىَ على كرسيِّه، وقد روى ذلك البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة مرفوعًا، وفيه «والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله

لجاهدوا فى سبيل الله فرسانًا أجمعون»، وفى البخارى: «إن الملك قال له قل إن شاء الله فلم يقل» . . ﴿ألقينا﴾ طرحنا. ﴿كُرْسِيِّه﴾ سرير ملكه. ﴿جسدًا﴾ جسم إنسان غير مكتمل. ﴿أناب﴾ رجع. ﴿هب لى﴾ اعطنى وامنحنى. ﴿ملكًا﴾ سلطانًا. ﴿لا ينبغى﴾ لا يكون. ﴿من بعدى﴾ سواى. ﴿فسخرنا﴾ فذللنا. ﴿بأمره﴾ بطلبه. ﴿رخاء﴾ لينة. ﴿أصاب﴾ قصد وأراد بلغة (هجر وحمير)، وعن رؤبة أن رجلين من أهل اللغة قصداه ليسألاه عن معنى هذه الكلمة فقال لهما: أين تصيبان؟ فقالا: هذه طلبتنا ورجعا. وعلى هذه اللغة قول الشاعر:

أَصَابَ الكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ
فَأَخْطَا الجَوَابَ لَدَى المِفْصلِ

﴿الشياطين﴾ جمع شيطان. وأصله المتمرد من الجن والإنس، والدواب مأخوذ من شطن بمعنى: بَعُدَ كقول الشاعر:

نَأَتْ بِسُعَادَ عَنْكَ نَوَى شُطُون
فَبَانَتْ وَالفُؤَادُ بِهَا رَهِينُ

والمتمرد بعدت خلاله عن الخير فسمى شيطانًا. والمراد به هنا: شيطان الجن خاصة. ﴿غواص﴾ فعَّال من الغوص وهو: النزول تحت الماء؛ لاستخراج اللؤلؤ ﴿مقرنين﴾ مجموعين مشدودين إلى بعض. ﴿الأصفاد﴾ القيود. ﴿فامنن﴾ أى: أطلق.

التراكيب:

قوله ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ عطف على ﴿فَتَنَّا﴾. وإنما عطف بثم للإشارة إلى استمرار إنابته وامتدادها، أو لأنه عليه السلام لم يعلم بالفتنة عُقَيْبَ وقوعها. وقوله ﴿قال﴾ بدل من ﴿أناب﴾. ويجوز أن يكون استئنافًا بيانيًا، كأنه قيل: كيف كانت إنابته؟ فأجيب: قال: رب اغفر لى. وقوله ﴿إنك أنتَ الوهاب﴾ تعليل للاستيهاب، وضمير الفصل للتأكيد، والفاء فى قوله ﴿فسخرنا﴾

تفريعية؛ لتفريع التسخير على طلبه ملكًا لا ينبغى لأحد من بعده.

وقوله ﴿الريح﴾ على قراءة الجمهور بالإفراد، وهو فى معنى الجمع؛ لكونه مقترنًا بأل الجنسية. وقوله ﴿تجرى بأمره﴾ يحتمل أن تكون حالاً من الريح أى جارية، ويحتمل أن تكون بيانًا وتفسيرًا لتسخيرها له، وقوله ﴿بأمره﴾ مضاف لفاعله والباء للسببية، وقوله ﴿رخاء﴾ بمعنى: ليِّنة، حال من فاعل تجرى وهى الريح، وقوله ﴿والشياطين﴾ معطوف على الريح. وقوله ﴿كل بَنَّاءٍ وغَوَّاص﴾ بدل من الشياطين. وقوله ﴿وآخرين﴾ عطف على كل داخل معه فى البدل؛ لأن كل بناء وغواص بدل كل من كل - بدل التفصيل - وليس معطوفًا على ﴿الشياطين﴾؛ لأنهم منهم، وليس معطوفًا أيضًا على ﴿بَنَّاء وغواص﴾ لأنه مضاف إلى كل، ولا يحسن فيه إلاَّ الإضافة إلى مفرد مُنَكَّرٍ أو جمع مُعرَّف. وقوله ﴿هذا عطاؤنا﴾ يجوز أن يكون مقولاً لقول مقدر معطوف على سخرنا، أوحال من فاعله فتقديره على الأول: فسخرنا وقلنا؛ وعلى الثانى: فسخرنا قائلين. والإشارة إلى الموهوب. وقوله ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يجوز فى الفاء أن تكون جزائية، وبغير حساب. إما متعلق بامنن أو بأمسك، ويجوز أن يكون حالاً من فاعلهما والتقدير: فامنن أو أمسك حال كونك غير محاسب عليه، ويجوز أن يكون بغير حساب حال من ﴿عطاؤنا﴾ والعامل ما دل عليه هذا من معنى الإشارة كقوله ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢] وعلى هذا فالفاء داخلة على جملة اعتراضية كقول الشاعر:

وَاعْلَمْ - فَعِلْمُ المَرْءِ يَنْفَعُهُ -
أَنْ سَوْفَ يَأْتِى كُلُّ مَا قُدِر

وقوله ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى﴾ جملة حالية من فاعل سخرنا. وقوله ﴿وحُسْنَ مآب﴾ بالنصب: عطف على ﴿زلفى﴾ وبالرفع على أنه مبتدأ خبره محذوف تقديره له.

المعنى الإجمالى:

ولقد بلونا هذا العبد الصالح واختبرناه، وطرحنا على سريره شقّ ولدٍ ثم رجع إلى ربه، قال: سيدى ومالكى ومصلح شأنى استر على، وامنحنى سلطانًا لا يكون لشخص سواى. إنك أنت الكثير العطاء فذللنا له الريح تسير بسبب أمره، لها سرعة لينة طيبة إلى أية جهة قصدها، وهذا عند حبه للينها، أمّا إذا أرادها شديدة عاصفة فإنها تكون كذلك، كما قال ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾، وسخرنا له مَرَدَة الجن يصرف بعضهم فى الأعمال الشاقة من البناء والغوص لاستخراج اللآلئ، وآخرين يقيدهم بالقيود، وقلنا هذا الموهوب منحة لك منا، وإذا كان كذلك فتصرفً فيه بلا حساب عليك، لقد سخرنا له هذا فى الدنيا، والحال أن له عندنا لدرجة عالية وجميل مرجع.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - فتنة سليمان.

٢ - أن إلقاء الجسد على كرسيه كان من الفتنة.

٣ - رجوعه إلى ربه.

٤ - أن طلب التسلط للغرض الشريف جائز.

٥ - لم يكن طلب سليمان ملكًا لا ينبغى لأحد سواه من باب الأثرة الممقوتة والأنانية.

٦ - إجابة دعوة سليمان عليه السلام.

٧ - تسخير الريح بهذه الصفة مخصوص لسليمان.

٨ - وأن الريح كانت منوعة رُخَاءً وعاصفةً.

٩ - تسخير الشياطين لسليمان.

١٠ - وهذا التسخير من خصوصياته.

١١ - إطلاق يده.

١٢ - درجته العالية فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر الله قصتى داود وسليمان - عليهما السلام - المبرِزَتَيْنِ لآلاء الله على عباده الصالحين، المبيِّنَتَيْنِ لقرب أَمَدِ الفتن التى يُفْتَنُ بها المرسلون، ذكر قصة أيوب - عليه السلام -؛ لتضمنها المعنى السابق فى القصتين السابقتين تأكيدًا وتقريرًا.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿أنى مَسَّنِىَ﴾ بفتح الهمزة، وقرئ ﴿إنى مَسَّنِىَ﴾ بكسرها. وقرئ ﴿بنُصْب﴾ بضم النون وسكون الصاد. وقرئ ﴿بنُصُب﴾ بضمتين. وقرئ أيضًا ﴿بنَصَب﴾ بفتحتين.

المفردات:

﴿أيوب﴾ أحد أنبياء بنى إسرائيل. ﴿نادى﴾ دعا. ﴿مسنى﴾ أصابنى. ﴿بنصبٍ﴾ على جميع القراءات بمعنى: التعب والمشقة فهى لغات فيها بمعنًى واحد من قولهم: أنصبنى. وقيل: إنها على القراءة الأولى جمع نَصَب كَوُثْن ووَثَنَ. ﴿عذاب﴾ أى: ألم. ﴿اركض برجلك﴾ أى اضرب بها. ﴿مُغْتَسَلٌ﴾ أى: ماء تغتسل به. ﴿وهبنا﴾ أعطينا. ﴿أهله﴾ زوجته وأولاده الذين كانوا معه فسلمهم له، وجمع بينهم. ﴿مثلهم﴾ مقدارهم. ﴿ذكرى﴾ عبرة. ﴿ضِغثًا﴾

قال ابن عباس: المراد عثكال النخل. وقال الضحاك: حزمة من الحشيش مختلفة. وقال الأخفش: هو الشجر الرطب. وقيل: هو القبضة من الحشيش أو القضبان، ومنه قولهم: ضِغْثٌ على إبالة، والإبالة الحزمة من الحطب. ﴿تَحْنَثْ﴾ الحنث هو الخلف في اليمين. ﴿وجدناه﴾ علمناه. ﴿صابرًا﴾ حابسًا نفسه عن الجزع راضيًا كل الرضا بقضاء الله.

التراكيب:

قوله ﴿واذكر عبدنا أيوب﴾ الواو لعطف اذكر عبدنا أيوب على قوله: اذكر عبدنا داود. وإنما لم يصدر قصة سليمان بهذا العنوان؛ لكمال الاتصال بينه وبين داود - عليه السلام - حتى كأن قضيتهما واحدة. و﴿أيوب﴾ عطف بيان لعبدنا أو بدل منه بدل كل من كل، وقوله ﴿إذ نادى﴾ بدل اشتمال من عبدنا، وقوله ﴿**أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾ بفتح الهمزة أى: بأنى، وعلى قراءة كسر الهمزة فهو مقول لقول مقدر واقع جواب سؤال مقدر على سبيل الاستئناف البيانى. أو فى محل نصب على الحال من فاعل دعا، وإسناد مسٍّ النُّصبِ والعذاب إلى الشيطان تأدبًا مع الله تعالى فى عدم إسناد الشر إليه، فَأُسْنِدَ إلى الشيطان؛ لأنه سبب كلٍّ بلاء يصيب الناس فى الدنيا إذ هو الذى تسبب فى إخراج أبينا آدم من الجنة. فكل ألم يلقاه الناس فبسببه، ويجوز إسناده إليه. والتنوين فى ﴿نُصْبٍ﴾ للتفخيم. وقوله ﴿**ارْكُضْ بِرِجْلِكَ**﴾ مقول لقول مقدر معطوف على نادى والتقدير: فقلنا له اركض، وقوله ﴿**هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ**﴾ مقول لقول مُقَدَّرٍ معطوف على مقدر أيضًا يُفهم من السياق تقديره: فركض بها فنبعت له عين فقلنا له: هذا مغتسل بارد وشراب، فاغتسل وشرب، فأزلنا ما به، ووهبنا له أهله. والمغتسل اسم مفعول على الحذف والإيصال، والأصل: مغتسل به أو منه. وقال مقاتل: هو اسم مكان أى: هذا مكان تغتسل فيه. وظاهر السياق يشهد للأول. وقوله ﴿رحمة﴾ مفعول لأجله. ﴿وذكرى﴾ معطوف عليه أى: وهبناهم له؛ لأجل رحمتنا إياه، وليتذكر بحاله أولو الألباب. أى: ليصبروا على الشدائد

كصبره، ويلجأوا إلى الله تعالى كلجوئه، فَيُحْسِنُ عاقبتَهُم كما أَحْسَنَ عاقبته. وقوله ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا﴾ عطف على ﴿اركض﴾ وقوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ تعليل لتفريج كربه وتيسير أمره وتهوين الضرب المحلوف عليه. والمخصوص بالمدح فى قوله ﴿نعم العبد﴾ محذوف تقديره: أيوب، وقوله ﴿إِنَّه أوَّاب﴾ تعليل لمدحه عليه السلام.

المعنى الإجمالى:

وتذكر يا محمد قصة عبدنا أيوب، تذكر دعاءه لربه، والتجاءه إليه، لَمَّا أصابه الضُّر ففرَّجنا كربه، وأزلنا ضره وقلنا له: اضرب برجلك، فضرب بها، فنبعت له عين ماء، فقلنا له: هذا ماءٌ تغتسل به، وشرابٌ تشرب منه، فاغتسل وشرب، فذهب ما كان يعانيه، وسلمنا له أهله، وزدناهم إلى الضِّعف؛ لأجل رحمتنا إياه، وليتذكر بحاله أصحابُ العقولِ فيلجأوا إلى الله كما لجأ، فيكشف ضرهم، ويفرج كربهم، وقلنا له: تناول بيدك حزمة من حشيش، فاضرب به هذا الحبيب، وبر بيمينك، لأنه اختبر فى باب الصبر فنجح، نعم العبد أيوب، إنه رجاع إلى مرضاة ربه.

ما ترشد إليه الآيات:

١- ثناء الله على أيوب.

٢- استحباب إسناد الشر إلى الشيطان.

٣- اختُبر أيوب بأذى فى نفسه وأهله فصبر.

٤- كشف ضره ومعافاته فى نفسه وأهله.

٥- مَنْحِه مِثْلِ أَهْلِه معهم.

٦- رحمة الله لعباده الصالحين.

٧- أن الله فعل به هذا ليقتدى به أصحاب العقول.

٨- أنه حرىٌّ بأهل الصبر أن يخفَّفَ عنهم.

٩- مدح أيوب - عليه السلام -.

١٠- أنه قدوة يُقتَدَى بها.

قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴿٤٥﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر الله تعالى قصص داود وسليمان وأيوب، وما فيها من الأسوة أتبع ذلك بذكر إبراهيم، ومن معه؛ ليتأسى بهم رسول الله ﷺ أيضًا، وليتسلى بذكرهم، وليكون حجة على العرب الذين قالوا: ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [ص: ٥] لأنهم يعظمون إبراهيم وملته التوحيد.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿عبادنا﴾على الجمع، وقرئ ﴿عبدنا﴾. وقرأ الجمهور ﴿الأيدى﴾ بالياء، وقرئ ﴿الأيد﴾ بغير ياء. وقرئ ﴿بخالصة﴾ بالتنوين، وقرئ بغير تنوين أيضًا. وقرأ الجمهور ﴿اليسع﴾ وقرئ ﴿اللّيْسع﴾ بتشديد اللام وسكون الياء.

المفردات:

﴿الأيدى﴾ بثبوت الياء جمع يد وكنى بذلك عن كثرة أعمالهم الجليلة، وخُصَّ اليد؛ لأن أكثر الأعمال بها؛ ولأن الذى لا يسخر جوارحه فى طاعة الله كأنه لا جوارح له. وأما قراءة ﴿الأيد﴾ بغير ياء فقيل: هى الأيدى بالياء وحذفت الياء تخفيفًا؛ لدلالة الكسرة عليها، وقيل الأيد القوة وهذا هو الأصل. ﴿الأبصار﴾ جمع بصر وهى الجارحة، والمراد أنهم المنتفعون حقيقة بأبصارهم كما أنهم هم المنتفعون حقيقة بأيديهم. ﴿أخلصناهم﴾ خصصناهم. ﴿بخالصة﴾

بخصلة عظيمة لا شوب فيها. ﴿ذكرى﴾ تذكر. ﴿الدار﴾ الآخرة. ﴿المصطفين﴾ المختارين من بين أبناء جنسهم.

﴿الأخيار﴾ جمع خَيِّر وهو الفاضل الكريم. ﴿اليسع﴾ أحد أنبياء بنى إسرائيل وهو خليفة إلياس - عليه السلام - فيهم. ﴿ذو الكفل﴾ قيل: هو إلياس - عليه السلام - وقيل: هو يوشع بن نون - عليه السلام - وقيل: هو نبى آخر اسمه ذو الكفل، وقيل: كان رجلاً من الصالحين.

التراكيب:

قوله ﴿واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ معطوف على اذكر عبدنا أيوب. وإبراهيم، وما عطف عليه بدل من عبادنا أو بيان له. وقيل: نصب إبراهيم بإضمار أعنى والباقى عطف عليه. ومن قرأ ﴿عبدَنا﴾ بالإفراد فإبراهيم وحده بدل، أو بيان له، أو منصوب بأعنى، وقيل: يجوز أن يكون ﴿عبدنا﴾ للجنس فيكون كالقراءة الأولى.

وقوله ﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾ تعليل لما وُصفوا به من شرف العبودية. والباء فى قوله ﴿بخالصة﴾ للتعدية إن كان ﴿أخلصناهم﴾ بمعنى خصصناهم. وللتعليل إن كان ﴿أخلصناهم﴾ بمعنى جعلناهم خالصين. والتنوين فى ﴿خالصةٍ﴾ للتفخيم، ومن قرأ ﴿بخالصةٍ﴾ بالتنوين فـ ﴿ذكرى﴾ بدل منه أو خبر لمبتدأ محذوف أى: هى ذكرى. ومن قرأ بغير تنوين فيخرج على أن خالصة مصدر بمعنى إخلاص، فيكون مصدراً مضافًا لمفعوله. و﴿ذكرى﴾ كذلك مصدر مضاف لمفعوله، و(أل) فى الدار للعهد أى: الدار الآخرة للإشعار بأنها الدار الحقيقية، وقوله ﴿وإنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار﴾ معطوف على الجملة التى قبله؛ لتأكيد مضمونها. وقوله ﴿عندنا﴾ من صلة الخبر الذى هو متعلق الجار والمجرور. وقوله :﴿واذكر إسماعيل﴾ عطف لاذكر على ﴿اذكر عبادنا﴾ وخص إسماعيل باذكر، ولم يعطفه على أبيه وأخيه وابن أخيه اعتناءً بشأنه من حيث إن جميع بنيه من العرب لا يشارك العرب فيه غيرهم، وإشادة بذكره الذى حاول اليهود - قبحهم الله - إخفاءه إذ حذفوا من التوراة تاريخه، ولم يبقوا

من ذكره سوى: ولادته، وإبعاده وهو صغير إلى برية فاران. كل هذا؛ لحقدهم على العـرب، وعصـبيتـهم لبنى إسرائـيل. واللام فى ﴿اليسع﴾ زائدة لازمـة لمقارنتـها للوضع، ولا ينافى هذا كـونه غير عـربى، فإنها قـد لزمت فى بعض الأعلام الأعـجمية كـالإسكندر، وقد لَحَّنَ التبـريزى من قال إسكندر بلا لام. وقيل: هو اسم عربى منقول من يسع مـضارع وسع، و(أل) فيه للمح الأصل. ولا أستبعد هذا لتداخل اللغات وعدم ضبط تاريخ استعمال اللفظ. وأما من قرأ «الليسع» فقيل: هو كذلك علم أعـجمى دخلت عليه اللام. وقيل: أصله ليسع كفـيعل من اللسع دخلت عليه (أل) للمح أصله. والـتنوين فى قوله ﴿وكلٌّ من الأخيار﴾ عوض عن المضاف إليه، والتقدير: وكل المذكورين من الأخيار.

المعنى الإجمالى:

وتذكر يا مـحمد قـصة عبـادنا: إبراهيم، وإسحـاق، ويعقوب أصـحابِ الأعمـال الجليلة والمعارف النافـعة المنتفـعين حقـيقة بأيديـهم وأبصارهم. إنا خصصناهم بخصلة خاصة بهم هى تذكر دار الآخرة، والدعوة إلى عمارتها. وإنهم لدينا من المخـتارين الجديرين بهـذا الاختيـار؛ لشرف نفوسـهم وكريم سجاياهم.

وتذكر قـصة إسماعـيل واليسع وذى الكفل وكل المذكورين من أهل الخـير والصلاح.

ما ترشد إليه الآيات:

١- ثناء الله - عز وجل - على هؤلاء المرسلين.

٢- أنه لا فائدة فى الجوارح إذا لم تثمر العمل الصالح.

٣- أن هؤلاء هم طلاب الدار الآخرة.

٤- أن الله اختارهم.

٥- هم أهل لأن يُخْتَارُوا.

*****

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ
وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّاتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ الْأَبْوَابُ
﴿٥٠﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾
۞ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

المناسبة:

لمَّا أمر الله نبيه بالصبر على سفاهة قومه، وذكر له جملة من أحوال إخوانه المرسلين، ذكر هنا ما يؤول إليه حال المؤمنين والكافرين من السعادة والشقاوة ومقر كل واحد من الفريقين، مع التنبيه على أن فى القصص السابقة كفاية لأصحاب العقول، والإشارة إلى تحدى العرب وإعجازهم بهذا الذكر.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿جناتِ﴾ بالنصب، وقرئ ﴿جناتُ﴾ بالرفع. وقرأ الجمهور ﴿هذا ما توعدون﴾ بالتاء، وقرئ بياء الغيبة أيضًا، وقرأ الجمهور ﴿مفتحةً﴾ بالنصب، وقرئ بالرفع.

المفردات:

﴿ذكر﴾ شرف لهم وثناء عليهم فى العاجلة. ﴿للمتقين﴾ الذين يجعلون بينهم وبين غضب الله وقاية بعملهم ما يرضيه، والمراد بهم هنا: إما المذكورون خاصة أو عموم المتقين. ﴿جنات﴾ بساتين. ﴿عدن﴾ إقامة من قولهم: عدن بالمكان إذا أقام فيه، على معنى أنهم يقيمون بها لا يريمون عنها. ﴿متكئين﴾ جمع متكئ وهو الجالس على هيئة المتمكن المتربع المستريح. ﴿يدعون﴾ ينادون. ﴿قاصرات الطرف﴾ حابسات العين يعنى:

على أزواجـهن. ﴿أتراب﴾ متـمـاثلات فى الأسنان والحـسن والشبـاب، أو مسـاويات لأزواجهـن فى السن. من قولهم: فـلان ترب لك، وهو من وُلِدَ مـعك فى وقت واحـد كأنهـمـا وقـعا عـلى التراب فى زمـن واحد. ﴿مـا توعدون﴾ مـوعودكم. ﴿ليـوم الحسـاب﴾ ليوم الجـزاء. ﴿لرزقنا﴾ لعطاؤنا. ﴿نفاد﴾ انقطاع.

التراكيب:

قوله تعالى ﴿هذا ذكر﴾ جملة مستـأنفة يؤتى بها للفصل بين كلامين، وهو أسلوب بديع يذكر للانتقال من حال إلى حال، وفـيه تنبيه إلى أن ما ذكر كان كافيًا لمن كان له قلب، وفيه إشارة إلى التحدى بالقرآن والإعجاز به. والإشارة إلى مـا تقدم من الآيات الناطقـة بالثناء على هؤلاء الصـالحين. وقـوله ﴿وإن للمتقـين لحسن مآب﴾ من قبـيل عطف القصة على القصـة، ويجوز أن يكون معطوفًـا على الجملة التى قـبلها أى: هذا شرف لهم فى الـدنيا، وإن لهم فى الآخرة لحسن مآب. وقوله ﴿جنات عدن﴾ على قراءة النصب بدل اشتمال من حسـن مآب، ويجـوز أن يكون منصوبًا على المدح، أمَّـا انتصـابها على أنـها عطف بيان فإنه لا يجـوز إلاَّ على مذهب الكوفيين والفارسى، وجـماعة من النحـويين الذين يجيـزون أن يكون عطف البـيان نكـرة تابعًا لنكرة. أمَّـا ابن عصفور وأكثر النحويين البصـريين، فإنهم لا يجيزون عطف البيان إلا إذا كان معرفة تابعًا لمعرفة. وقوله ﴿مـفتحةً﴾ بالنصب صفة لجنات عدن و﴿الأبواب﴾ نائب فـاعل لـ﴿مفـتحة﴾ والرابـط العائد على الجنات إمـا ضمـير مـحذوف تقديره: الأبواب منها كـما هو رأى البصريين، أو الألف واللام القائمـة مقام الضمير كما هو رأى الكوفيين.

ويجوز أن تـكون مفتـحة حـالا من محـذوف يدل عليه المعنى تـقديره: يدخلونها مفـتحة لهم الأبواب. ومن قرأ ﴿جناتُ﴾ بالرفع وكذلك (مـفتحةٌ) فهما مبـتدأ وخبر أو هما خبران لمبتدأ محـذوف. وقوله ﴿متكئين﴾ حال من ضمير ﴿لهم﴾ وهى حال مقدرة؛ لأن الاتكاء ليس فى حال تفتيح الأبواب بل

بعده، وجوَّزَ بعض أهل العلم أن يكون ﴿متكئين﴾ حـالاً من ضمير يدعون، وقُدِّمَ لرعايته الفاصلة. وقوله ﴿يدعون﴾ اسـتئناف بيانى كأنه قيل: ما حالهم بعد دخولها؟ فقيل: يدعون مـتكئين. وأمَّا على الإعراب الأول لمتكئين، فإنه يجوز أن تكون حـالاً من ضمـير ﴿لهم﴾ أيضًا وهى مـقدرة كـذلك. وقوله ﴿هذا ما يوعدون﴾ على قراءة الياء على مقتضى الظاهر؛ لأن المقام للغيبة، إذ قبله ﴿وعندهم﴾ وأمَّـا على قراءة الجمهور فـفيها التـفات. واللام فى ﴿ليوم الحساب﴾ للتوقـيت، كما يقال: كتب هذا لخمس خلـون من رمضان أى بعد خمس. وقـوله ﴿ما له من نفـاد﴾ ما نافـية، وله خبـر مقدم ومِـنْ جىء بها لاستغراق النفى ونفاد: مبتدأ مؤخر. والجملة: فى محل نصب حال من رزقنا أو فى محل رفع خبر ثان لإِنَّ.

المعنى الإجمالى:

هذه الآيات الناطقة بمحاسن هؤلاء الصالحـين شرف لهم، وثناء عليهم فى العاجلة، وإن لهم؛ لِتَقْوَاهُم لَجَمِيـلُ مرجع فى الآخرة: إن لهم بساتين إقامة لا يروحون عنهـا، أبوابها مفتـحة لهم، معـتمدين فيـها على الآرائكِ ينادون خدمـهم بإحضار فاكـهة كثيـرة وشراب كثيـر، ولديهم حور قصرن عـيونهن عليهم، متـماثلات فى السن، والحسن والشباب. هذا المذكور مـوعودكم أيها المتقون فى يوم الجزاء. إن هذا المُعَدَّ لكم لَعطاءٌ منا لا ينقطع.

ما ترشد إليه الآيات:

١- العمل الصالح يورث شرف الدنيا وسعادة الآخرة.

٢- للمتقين نعيم مقيم فى جنات عدن.

٣- نساء الجنة متماثلات فى السن والحسن والشباب.

٤- النعيم الحق فى الآخرة.

٥- عدم فناء الجنة.

******

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ
لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا
فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾
هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾
قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾
قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾
وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ
سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ
ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾

المناسبة:

لما بيَّنَ الله سبحانه حال السعداء؛ للترغيب، أتبعه ببيان حال الأشقياء؛ للترهيب.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿غسَّاق﴾ بتشديد السين، وقرئ بتخفيفها. وقرأ الجمهور ﴿وآخر﴾ على الإفراد. وقرئ ﴿وأُخر﴾ بالجمع. وقرئ ﴿من شكله﴾ بفتح الشين وقرئ بكسرها. وقرئ ﴿أتخذناهم﴾ بهمزة القطع للاستفهام. وقرئ بهمزة الوصل. وقرئ ﴿سُخريا﴾ بضم السين وقرئ بكسر السين. وقرئ ﴿تخاصمُ﴾ بالرفع وقرئ بالنصب أيضًا.

المفردات:

﴿الطاغين﴾ أي: الكفار المتجاوزين حدود التوحيد إلى الشرك. ﴿لشر مآب﴾ لقبيح مرجع. ﴿جهنم﴾ النار المحرقة البعيدة القاع، من الجهنام وهي:

البئر العميقة. ﴿يصلونها﴾ يدخلونها ويعذبون بها. ﴿بئس﴾ قبح وذم. ﴿المهاد﴾ الفراش. ﴿فليذوقوه﴾ فليختبروا طعمه ويحسوا به، وهذا على سبيل التبكيت. ﴿حميم﴾ الماء الشديد الحرارة. ﴿غسَّاق﴾ بالتشديد والتخفيف: هو اسم ما يجرى من صديد أهل النار أو عين فى جهنم يغمس فيها الكافر فيتساقط جلده ولحمه، وقيل: هو الزمهرير. وقيل: هو وصف من غسق بمعنى سال يقال: غسقت العين إذا سال دمعها. وقد حذف هنا موصوفه والتقدير: ومذوق غساق أى: سائل من جلود أهل النار. والوصف فى المشدد أظهر؛ لأن فعّالا بالتشديد قليل فى الأسماء كالغَيّاد لذكر البوم، والخطار لدهن يتخذ من الزيت، والعُقَارِ لما يُتَدَاوَى به من النبات.

﴿وآخر﴾ أى: مذوق آخر أو عذاب آخر، وبالجمع ومذوقات أخر أو أنواع عذاب أخر. ﴿أزواج﴾ أصناف وأجناس. ﴿فوج﴾ جمع كثير يعنى: من أتباعهم فى الضلال. ﴿مقتحم﴾ أى: داخل وسط شدة مخيفة. ﴿مرحبًا﴾ من الرُحب بضم الراء وهو السعة. ﴿قدمتموه﴾ سببتموه. ﴿القرار﴾ المقر. ﴿ضعفًا﴾ أى: زائدًا مضاعفًا. ﴿نعدهم﴾ نعتبرهم. ﴿الأشرار﴾ الأراذل الذين لا خير فيهم، يعنون فقراء المسلمين. ﴿سُخريا﴾ بضم السين من السُّخرة والاستخدام، وبكسرها من السِّخر وهو الهزء. ﴿زاغت﴾ مالت. ﴿الأبصار﴾ العيون. ﴿لحق﴾ صدق ولابد من أن يجرى بينهم. ﴿تخاصم﴾ تدافع. ﴿أهل النار﴾ يعنى الكفار المستحقين لها.

التراكيب:

قوله ﴿هذا﴾ خبر لمبتدأ محذوف، كما قال الزجاج أى الأمر هذا. وقيل: هو مبتدأ خبره محذوف أى: هذا للمؤمنين. والإشارة إلى ما ذكر مما أعد للمؤمنين. وقوله ﴿وإن للطاغين لشر مآب﴾ معطوف على ما قبله، وقوله ﴿جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾ جهنم: بدل اشتمال مما قبله، (ويصلونها) حال من جهنم، وقوله (فبئس المهاد) المخصوص بالذم محذوف تقديره: هى، يعنى: جهنم، والفاء للترتيب الذكرى، وقوله ﴿هذا فليذوقوه حميم وغساق﴾ هذا: مبتدأ وحميم : خبره، وغسَّاق: معطوف عليه. وجملة ﴿فليذوقوه﴾

اعتراضية كقولك: زيد فافهم رجل صالح، ويجوز على مذهب الأخفش أن يكون هذا: مبتدأ وجملة (فليذوقوه الخبر) كقولك: زيد فاضربه، وقول الشاعر:

وقائلة خولانُ فانكح فتاتهم

وعلى هذا فحميم: خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو، وغسَّاق: معطوف عليه. وقوله ﴿وآخر من شكله أزواج﴾ آخر: خبر مبتدأ محذوف أى: هذا مذوق آخر، أو هذه مذوقات أخر، والجملة معطوفة على التى قبلها. وقوله ﴿من شكله أزواج﴾ صفتان لآخر أو أخر. وتوحيد الضمير فى شكله دون تثنيته أو جمعه مع أنه راجع للحميم والغسَّاق على معنى من شكل المذكور، وإنما ساغ جعل أزواج صفة لآخر على قراءة (الإفراد)؛ لأن آخر وإن كان مفردًا، فإنه جمع فى المعنى؛ لصدقه على متعدد، ويحتمل أن يكون آخر أو أخر (مبتدأ)، ومن شكله صفته، وأزواج (خبره)، وهذا على قراءة الجمع ظاهر. أما على قراءة ﴿آخر﴾ بالإفراد فلما ذكرنا من أنه وإن كان مفردًا فى اللفظ فهو جمع فى المعنى. وقوله ﴿هذا فوج مقتحم معكم﴾ يجوز أن يكون حكاية لما تقوله ملائكة العذاب لرؤساء الضلال عند دخول النار تقريعًا لهم، ويجوز أن يكون حكاية كلام المتبوعين بعضهم مع بعض. وعلى كلٍ فالجملة مقول لقول مقدر أى: يقال لهم، وقوله ﴿لا مرحبًا بهم﴾ من كلام المتبوعين فى أتباعهم. ومرحبًا منصوب بفعل مقدر أى: لا أتيتم مرحبًا أو لا سمعتم مرحبًا، ويجوز أن يكون منصوبًا على المصدرية بفعل محذوف تقديره: لا رحبت بهم الدار مرحبًا. والجملة مستأنفة سيقت للدعاء عليهم، وقوله ﴿بهم﴾ بيان للمدعو عليهم. وقوله ﴿إنهم صالوا النار﴾ تعليل للدعاء عليهم وهو من حكاية قول القادة. وقوله ﴿بل أنتم لا مرحبًا بكم﴾ من حكاية قول الأتباع لمتبوعيهم ردًا عليهم. وقوله ﴿أنتم قدمتموه لنا﴾ تعليل لأحقيتهم بذلك. وضمير الغيبة فى ﴿قدمتموه﴾ للعذاب المفهوم من المقام. أو للصلى الذى تضمنه ﴿صالوا النار﴾، والفاء فى قوله ﴿فبئس القرار﴾ للترتيب فى

الذكر. وقوله ﴿قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذابًا ضعفًا فى النار﴾ الضمير فى قالوا للأتباع. و﴿مَنْ﴾ يحتمل أن تكون شرطية، ويحتمل أن تكون موصولة ودخلت الفاء فى خبرها على هذا لما فى الموصول من شبه الشرط. و﴿فى النار﴾ يجوز أن يكون ظرفًا ﴿لزده﴾ أو نعتًا ﴿لعذابًا﴾. وقوله ﴿ما لنا لا نرى رجالاً﴾ ﴿ما﴾ مبتدأ و﴿لنا﴾: خبره، وجملة ﴿لا نرى رجالا﴾ حال. والاستفهام المفاد بما تعجبى. وقوله تعالى ﴿أتخذناهم سخريًا﴾ على قراءة الاستفهام هو استئناف لا محل له من الإعراب، وعلى قراءة إسقاط الهمزة يجوز أن تكون مقدرة لدلالة أم عليها. ويجوز أن يكون الكلام إخبارًا، والجملة صفة ثانية ﴿لرجالا﴾. والياء فى سخريًا للنسب. وإنما جىء بياء النسب للدلالة على قوة الفعل، فالسخرى أقوى من السخر كما قيل فى الخصوص خصوصية للدلالة على قوة ذلك. وقوله: ﴿أم زاغت عنهم الأبصار﴾ أم منقطعة كأنهم أضربوا عن إنكار الاستسخار، وأنكروا على أنفسهم ما هو أشد منه، وهو أنهم جعلوهم محقرين لا ينظر إليهم بوجه. والتعبير بزاغت دون أزغنا للمبالغة كأن العين بنفسها تمجهم؛ لقبح النظر إليهم. وقوله ﴿إن ذلك لحق تخاصم أهل النار﴾ الإشارة فيه إلى: التفاوض، والتقاول، والتدافع الذى حكى عنهم، و﴿تخاصمُ﴾ بالرفع على قراءة الجمهور خبر لمبتدأ محذوف أى: هو تخاصم والجملة فى محل نصب بيان لاسم الإشارة. والإبهام ثم التبين؛ لزيادة التقرير. وأمّا على قراءة النصب فهو بدل من اسم الإشارة أيضًا.

المعنى الإجمالى:

الأمر هذا الذى وصفنا، وإن للمتجاوزين حق التوحيد إلى الكفر لقبيح مرجع. النار المحرقة البعيدة القاع يدخلونها ويعذبون بها، ويفترشونها، فقبح وذم وساء الفراش جهنم. هذا العذاب فليحسوا به - ماء شديد الحرارة، وقيح وصديد يجرى من أجساد أهل النار، أو عين فى جهنم ينغمسون فيها. يصهر به ما فى بطونهم والجلود. وعذاب آخر من مثل المذكور فى الشدة والفظاعة

أنواع، ويقال للرؤساء عند دخولهم النار: هذا جمع كثير داخل وسط شدة مخيفة فى صحبتكم! فيقول الرؤساء: لا سعة عليهم، إنهم داخلون النار، قال الأتباع للرؤساء: بل أنتم لا سعة عليكم، أنتم سببتم لنا هذا العذاب. فبئس المقر للجميع جهنم. قالوا: سيدنا ومالكنا: من سبب لنا هذا العذاب فزده عقابًا مضاعفًا فى جهنم. وقالوا: أى شىء حدث لنا حال كوننا لا نبصر رجالاً فى جهنم كنا نعتبرهم فى الدنيا من الأراذل؟ ننكر على أنفسنا الآن الاستهزاء بهم فى الدنيا أو جعلهم مسخرين، بل ننكر على أنفسنا ما هو أفظع وأشد، وهو جعلهم محقرين حتى كأن العين بنفسها تمجهم لقبح النظر إليهم. إن هذا التدافع والتفاوض والتقاول لا بد من وقوعه ألبتة، هو تقاول أهل النار.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - بيان حال أهل النار.

٢ - تنوع عقابهم.

٣ - تبرؤ الذين اتُّبِعوا من الذين اتَّبَعُوا.

٤ - الدعاء عليهم

٥ - دعاء الأتباع على المتبوعين.

٦ - وصمهم بأنهم سبب بلائهم.

٧ - تبكيتهم لأنفسهم على ما قدموا من الإساءة للفقراء.

٨ - الواقعة خافضة رافعة.

٩ - تخاصم أهل النار حق لا بد من وقوعه.

******

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾
رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَأٌ
عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ
إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾

المناسبة:

لما كان من الغرض الذى سيقت له هذه السورة هو إثبات الرسالة وتقرير التوحيد، وقد حكى الله عن الكفار فى أول السورة أنهم أنكروا الرسالة والتوحيد ﴿فقالوا ساحر كذاب﴾. ﴿أجعل الآلهة إلهًا واحدًا﴾. وقص الله من أحوال بعض المرسلين ما قص، من التجائهم إلى الله وحده؛ لتفريج كربهم لما فتنوا، وفى هذا تقرير الرسالة والتوحيد، رد هنا على منكرى الرسالة والتوحيد بتقريرهما وإثباتهما بقوله ﴿قل إنما أنا منذر وما من إله إلاَّ الله الواحد القهار﴾. وذكر أدلة قاطعة على ذلك.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿إن يوحى إلىَّ إلاَّ أنما أنا نذير مبين﴾ بفتح همزة أنما، وقرئ بكسرها.

المفردات:

﴿منذر﴾ مخوف. ﴿إله﴾ مألوه محبوب مستحق للعبودية. ﴿الواحد﴾ الأحد الذى لا شريك له، ولا يشبهه شىء. ﴿القهار﴾ الغلاب العالى على جميع الخلائق. ﴿العزيز﴾ القوى الذى يَغلب ولا يُغلب وهو يجير ولا يُجار عليه. ﴿الغفار﴾ الستار لما يشاء من هفوات عباده وسيئاتهم. ﴿نبأ﴾ خبر خطير.

﴿عظيم﴾ جليل. ﴿أنتم﴾ أيها الكفار من قريش وغيرهم. ﴿معرضون﴾ صادون. ﴿من علم﴾ من سابق معرفة. ﴿بالملأ﴾ بالجماعة الأشراف الذين يملئون العيون رواءً، والنفوس جلالةً وبهاءً. والمراد بالملأ هنا جماعة الملائكة وآدم، وكان معهم إبليس. ﴿الأعلى﴾ العلو هنا حِسِّيّ؛ لأنهم كانوا فى السماء. ﴿يختصمون﴾ يتقاولون. ﴿يُوحَى إِلَيَّ﴾ يُلقى إلىَّ الوحى، وينزل على الملك، وأبعث إليكم. ﴿مبين﴾ بين الإنذار. ﴿خالق﴾ موجد. ﴿بشرًا﴾ جسمًا كثيفًا يلاقى ويباشر، أو خلقًا بادى البشرة بلا صوف ولا شعر ولا وبر، والمراد به آدم. ﴿سويته﴾ صورته وعدلته. ﴿ونفخت فيه﴾ دفعت فيه. ﴿من روحى﴾ من الحياة التى أملكها وأحيى بها الخلق. ﴿فقعوا﴾ فخرُّوا. ﴿ساجدين﴾ ساقطين على وجوهكم. ﴿إبليس﴾ هو من الجن، وكان من سكان السموات بين صفوف الملائكة؛ وهو إفعيل من الإبلاس وهو الإياس من الخير، وفيه معنى الندم والحسرة كما قال رؤبة:

وحضرت يوم الخميس الأخماس

وفى الوجوه صفرة وإبلاس

يعنى به اكتئابًا وكسوفًا. ﴿استكبر﴾ اعتبر نفسه كبيرًا.

التراكيب:

القصر فى قوله ﴿إنما أنا منذر﴾ إضافى. والعطف فى قوله ﴿وما من إله إلا الله﴾؛ لإفادة أن له ﷺ صفة الدعوة إلى توحيده أيضًا مع صفة النذارة فالأمران مستقلان بالإفادة. و﴿مِنْ﴾ فيها؛ لاستغراق النفى أى: ما إله مستحق للعبودية أصلاً إلاّ الله. والحصر فى قوله ﴿وما من إله إلا الله﴾ حقيقى. ولما كان المقام لتقرير الرسالة والتوحيد، وكانت الرسالة هى السبيل الذى يعرف منه التوحيد ذكرها أولاً ثم ثنى بالتوحيد. ولما كان التوحيد هو الغاية التى بُعِثَ لأجلها المرسلون عقب قوله ﴿وما من إله إلا الله﴾ بخمس صفات لله كلها؛ لتقرير التوحيد. أما الوصف بالواحد فظاهر، وأما القهار فلأنه لو وجد إله غيره لم يكن قهارًا له؛ لأنه لو قهره لم يكن المقهور إلهًا بالضرورة. ولو قهره الآخر لا يكون إلهًا. تعالى الله عن ذلك علواً كبيرًا. وأما الوصف بالربوبية فلأن الرب هو سيد كل شيء ومليكه ومربيه، وهذا ينافى أن يكون هناك إله

آخر. وأما العزيز فلأنه يقتضي أن يَغلب غيره ولا يَغلبه غيره، ومع الشركة لا يتم ذلك. وأماً الوصف بالغفَّار فلأنه يقتضى أن يغفر ما يشاء لمن يشاء، فلو وُجد إله آخر ربما شاء مغفرة لأحد وشاء الآخر عقابه، ولا بد من أن يفوت مراد أحدهما، ومن فات مراده ليس بإلهٍ. تعالى الله عن الشركاء والأنداد علواً كبيرًا.

وقوله ﴿قل هو نبأ عظيم﴾ الضمير فيه راجع إلى القرآن المشتمل على الإنذار والتوحيد. وجملة: أنتم عنه معرضون صفة ثانية لنبأ. وقوله ﴿ما كان لى من علم بالملأ الأعلى إذ يختصمون﴾ استئناف مسوق لتحقيق النذارة حيث أنبأ عن الملأ الأعلى نبأً مفصلاً دون سابق معرفة به ولا مباشرة سبب من أسباب المعرفة المعتادة. فكان ذلك حجة بينة دالة على أن ذلك بطريق الوحى من عند الله تعالى. وقوله ﴿بالملأ﴾ متعلق بعلم لتضمنه معنى الإحاطة. والملأ: اسم جمع ولذلك وصف بالمفرد، وأعيد عليه ضمير الجمع. وقوله ﴿إذ يختصمون﴾ متعلق بمحذوف يقتضيه المقام إذ المراد: نفى علمه - عليه الصلاة والسلام - بحالهم، والتقدير: ما كان لى من علم بحال الملأ الأعلى وقت اختصامهم. والتعبير بالمضارع بدل الماضى؛ لاستحضار حكاية الحال؛ لأنه أمر غريب. وقوله ﴿إن يُوحَى إلىَّ إلا أنما أنا نذير مبين﴾ اعتراض بين قوله ﴿إذ يختصمون﴾ المفيد لاختصامهم إجمالاً، وبين قوله ﴿إذ قال ربك للملائكة﴾ المفيد لاختصامهم تفصيلاً وإنما جىء بهذه الجملة المعترضة؛ لزيادة تقرير النذارة أيضًا، وتعيين سبب علمه عليه الصلاة والسلام. ونائب الفاعل إما ضمير عائد على الحال المقدر والتقدير: ما يوحى إلىَّ حالهم إلاَّ لأنى نذير مبين من جهته تعالى. ومن قرأ ﴿أنما﴾ بالفتح فعلى تقدير اللام. أما على قراءة الكسر فالتقدير: لم أومر إلا بأن أقول لكم إنما أنا نذير مبين. أى دون أن أقول لكم أنا أعلم الغيب بدون وحى. فالحصر هنا إضافى وقوله ﴿إذا قال ربك للملائكة﴾ شروع فى تفصيل ما أجمل من الاختصام. ﴿وإذ﴾ فيه بدل من إذ الأولى، وليس من ضرورة البدلية دخولها على نفس الاختصام بل يكفى اشتمال ما فى حيزها عليه. وقيل: إذ منصوب بمقدر هو اذكر. وقوله ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ توكيدان. أما الأول: فلإفادة أنه لم يبق منهم أحد إلاَّ سجد، وأما الثانى: فلإفادة أن سجودهم كان بطريق المعية، وأنه لم يتأخر أحد عن أحد، وهو فى هذا يفيد ما يفيده الحال ويزيد عليه معنى

التوكيد. والفاء أفصحت عن مقدر أى فخلقه فسوّاه فنفخ فيه الروح فسجد الملائكة. هذا وإذا أمر الله تعالى بالسجود لآدم لا يكون السجود عبادة لآدم بل عبادة لله الآمر بالسجود؛ طاعة له. وإنما فيه تكريم لآدم كالسجود لجهة الكعبة. وقوله «إلاّ إبليس» الاستثناء منقطع لأنه كان من الجن فهو من باب قام القوم إلاّ حمارًا. فإن قيل: إذا كان إبليس من الإبلاس كما مرّ فهلا صرف؟ أجيب بأنه إنما لم يصرف إذ كان اسمًا لا نظير له من أسماء العرب فشبهته العرب بأسماء العجم فمنعته من الصرف.

المعنى الإجمالى:

قل يا محمد ما أنا إلا رسول يعلمكم عن ربه، ويخوفكم، ولا معبود بحق إلا الله الذى لا شريك له العالى على جميع خلقه سيد كل شىء ومليكه ومربيه، الغالب الذى يستر سيئات عباده، وهو قادر على أن يؤاخذهم بها. قل يا محمد: هذا القرآن خبر خطير جليل أنتم عنه صادون غافلون. من أين أعلم حال الملائكة وقت تراجعهم فى شأن آدم، وامتناع إبليس عن السجود فأنا أمى لم أقرأ كتابًا ولم أتخلف إلى من يعلمنى، ما علمته إلا من طريق الوحى، وما أُوحىَ إلىّ إلاّ لأنى نذير بيِّن الإنذار واضحُه.

من أين أعلم حال الملأ الأعلى إذ قال ربك للملائكة إنى موجد إنسانًا بادى البشرة من طين، فإذا عدلته وأتممت خلقه، وبعثت فيه الحياة فخروا له على وجوهكم ساقطين، فلما خلقه وعدله، ونفخ فيه الحياة، سجد الملائكة لم يتخلف منهم أحد، ولم يتأخر أحد فى السجود عن أحد، إلاّ إبليس تعاظم وصار من الجاحدين العاصين.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تقرير النذارة.

٢ - تقرير التوحيد.

٣ - إعلام الله الملائكة بآدم قبل خلقه.

٤ - تكريم آدم.

٥ - طاعة الملائكة لله وسرعة امتثالهم لأمره.

٦ - امتناع إبليس عليه اللعنة عن السجود.

٧ - علة امتناعه الكبر.

قال تعالى: ﴿ قَالَ
يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ
مِنَ ٱلۡعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ
﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ
ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾

المناسبة:

بعد أن قص الله تعالى ما كان من مسارعة الملائكة لأمر الله بالسجود لآدم، وامتناع عدوه إبليس عن السجود. بيّن هنا أن السبب الذى دعا إبليس للامتناع هو الاستكبار، وبيّن أن هذا الاستكبار أورثه الذل الأبدى والشقاء السرمدى.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿لِمَا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم. وقرئ «لَمّا» بفتح اللام وتشديد الميم. وقرأ الجمهور ﴿بيَدَىَّ﴾ على التثنية. وقرئ ﴿بيدى﴾ على الإفراد. وقرأ الجمهور ﴿أستكبرتَ﴾ بهمزة الاستفهام. وقرئ ﴿استكبرت﴾ بإسقاط الهمزة.

المفردات:

﴿العالين﴾ جمع عال وهو الرفيع الشريف. ﴿خير﴾ أعلى وأفضل. ﴿اخرج﴾ أى اهبط. ﴿رجيم﴾ أى مطرود. ﴿لعنتى﴾ أى إبعادى إياكَ عن الرحمة. ﴿الدين﴾ الجزاء. وفى المثل: كما تَدين تُدان. ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ يَبْقَ سَوَى العُدْوَا   نِ دِنَّاهُمْ كَمَا دَانُوا

﴿أنظرنى﴾ أمهلنى وأخِّرْنِى. ﴿يوم يُبعثون﴾ يوم القيامة. ﴿الوقت المعلوم﴾ الزمن المعين يعنى لبعث الخلائق أو لفنائها.

التراكيب:

قوله ﴿ما منعك أن تسجد﴾ (ما) استفهامية للإنكار والتوبيخ. وأن تسجد فى تأويل مصدر مجرور بمن المحذوفة قياسًا وتقديره: أى شىء منعك من السجود. وما فى قوله ﴿لما﴾ على قراءة الجمهور موصولة بمعنى الذى. وخلقت: جملة الصلة والعائد محذوف. وعلى هذا (فما) مستعملة هنا للعاقل. وقال قوم: إنها مصدرية فهى مع مدخولها فى تأويل مصدر بمعنى اسم المفعول يعنى؛ لمخلوق بيدى. وعلى قراءة «لَمَّا» بالتشديد فهى بمعنى حين، وقوله ﴿بيدى﴾ إشارة إلى شرف آدم - عليه السلام -. وقوله ﴿أستكبرت أم كنت من العالين﴾ على قراءة الجمهور بإثبات همزة الاستفهام، المقصود منه الإنكار والتوبيخ. و﴿أم﴾ على هذا متصلة معادلة للهمزة.

ونقل ابن عطية عن أكثر النحويين أنها لا تكون معادلة للهمزة مع اختلاف الفعلين كهذه الآية، وإنما تكون معادلة إذا دخلت على فعل واحد كقولك: أقام زيد أم عمرو، وقولك أزيد قام أم عمرو؟ وهذا الذى حكاه ابن عطية فاسد.. فجمهور النحاة على خلافه، وفى مقدمتهم سيبويه. وأما من قرأ ﴿استكبرت﴾ بإسقاط الهمزة فيحتمل أن يكون الكلام على سبيل الاستفهام أيضًا، وقد حذفت همزته لدلالة أم عليها كقول الشاعر:

فَوَاللهِ مَا أَدْرِى وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا   بِسَبْعٍ رَمَيْنَ الجَمْرَ أَمْ بِثَمَانِ

وعليه فتكون أم متصلة معادلة للهمزة المحذوفة أيضًا. ويحتمل أن يكون الكلام خبرًا على سبيل التقريع، وأم منقطعة بمعنى بل. والمعنى: أنت متعاط للكبر بل أنت من العالين عند نفسك. وهذا على سبيل الاستخفاف

والتـوبيخ. وقوله ﴿أنـا خيـر منه﴾ جواب للاسـتـفهـام وتعليل للمـانع من السجود. ويجوز أن يكون استئنافًا بيانيًا. وقوله ﴿خلقتنى من نار وخلقتَه من طين﴾ مستأنف لبيان الخبرية كأنه سـئل ما وجه الخيرية؟ فأجاب: خلقتنى من نار وخلقـتَه من طين، أو تعليل لما ادعـاه من الفضل. وقـوله ﴿قال فـاخرج منها﴾ الفاء فصيحة، والضمير فى قوله ﴿منها﴾ للجنة. وإنما أتى بضميرها - وإن لم يسبق لهـا ذكر - لشـهرة كونه من سكانهـا. وقوله ﴿فـإنك رجيم﴾ تعليل للأمر بالخروج. أى: لأنك مطرود من الجنة عليك الذلة والصغار. ولا تكرار بين قوله ﴿فإنك رجيم﴾ وقوله ﴿وإن عليك لعنتى﴾ فإن الأول طَرْدٌ من خصـوص الجنة، والثانى إبعاد من عـموم الرحمـة. وقوله ﴿إلى يوم الدين﴾ ليس غاية للعنة تـنتهى عنده بل للإيذان بأن اللعنة مع كمـال فظاعتهـا ليست كافية فى جزاء جنايته، بل إنه سيلقى يومئذ من ألوان العذاب، وأنواع العقاب ما تنسى عنده اللعنة وتصير كالزائل. والفاء فى قوله ﴿فأنظرنى﴾ فصيحة كأنه قال: إذا جعلتنى رجـيمًا فأمهلنى إلى يوم القـيامة. والضمير فى ﴿يبـعثون﴾ لآدم وذريته والفاء فى قوله ﴿فـإنك من المنظرين﴾؛ لترتيب الإخبار بكونه من المنظرين على قوله ﴿أنظرنى﴾ كـما فى قوله ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]. وكما فى الشطر الأول من قول الشاعر:

فَـإِنْ تَرْحَمْ - فَـأَنْتَ لِذَاكَ أَهْلٌ   وَإِنْ تَطْرُدْ فَـمَنْ يَـرْحَمْ سِـوَاكَـا

فإن كـونه أهلاً للرحمـة لا يترتب على رحـمته الداعى فـقط بل هو أهل للرحمة أزلاً. فـالآية إخبار بالإنظار المقدر له أزلاً لا إنشـاء لإنظار خاص به وقع إجابة لدعـائه. قيل: إنه طلب تأخير مـوته إلى يوم القيامة، فـأخبر بأنه مؤجل إليـه لحكمة يعلمهـا الله. وعليه فيـوم الوقت المعلوم هو الوقت الذى قدره الله وَعَيَّنَهُ لفناء الخلائق. وقيل: إن الذى طلبه هو تأجـيل العقوبة فأخبر بأنه مؤجل مع المؤجلين إلى يوم القيامة. والله أعلم.

المعنى الإجمالى:

قال يـا إبليس ما المانع من سـجودك لآدم الذى كـونته بيـدى، فنال بذلك شرفًا عظيمًا. أتعاطيت الكبر، وأنت لا تستحقه! أم أنت رفيع فى ذاتك تَبير عند نفسك. قـال: أنا خير وأفضل منه أنا مـخلوق من نار وهو مخلوق من طين، والنار أشرف من الطين. قال أنت لا تستـحق الكرامة فاخرج من الجنة لأنك مطرود ذليل، ولأنك مـبعد من رحـمتى. قـال: سيـدى ومالكى: إذا جعلتنى رجـيمًـا فأمهلنى إلى يوم القـيامة. قـال: فأنت ممهل مع غـيرك إلى الوقت المعين للإماتة أو للعقوبة.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - توبيخ إبليس على امتناعه من السجود.

٢ - شرف آدم.

٣ - إثبات اليدين لله عز وجل من غير تمثيل ولا تكييف.

٤ - تكبر إبليس.

٥ - إبليس مخلوق من نار.

٦ - حرمانه من أنواع الكرامة.

٧ - بيان أنه مؤجل.

٨ - معرفة الجن لأمر البعث.

******

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

المناسبة:

لما ذكر الله تعالى السبب الذى دعا إبليس إلى الامتناع عن السجود، وما أورثه ذلك من الذل الأبدى واللعن السرمدى، وما كان من تأجيل اللعين، بيّن هنا ما أقسم عليه عدو الله من إضلال الخلائق إلاّ من أخلص لله تعالى، وبيّن حال الضالين.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام على صيغة اسم المفعول، وقرئ ﴿المخلِصين﴾ بكسر اللام على صيغة اسم الفاعل. وقرأ الجمهور ﴿فالحقَّ والحقَّ﴾ بنصبهما. وقرئ برفعهما. وقرئ بجرهما وقرئ برفع ﴿فالحقُّ﴾ ونصب ﴿والحقَّ﴾.

المفردات:

﴿فبعزتك﴾ أى: بقهرك وسلطانك. ﴿لأغوينهم﴾ لأضلنهم. ﴿المخلَصين﴾ بفتح اللام أى: الذين أخلصهم الله تعالى لطاعته. وبكسر اللام أى: الذين أخلصوا قلوبهم وأعمالهم لله تعالى. ﴿فالحق﴾ إما اسمه تعالى أو هو نقيض الباطل. ﴿منكَ﴾ أى من جنسك وذريتك. ﴿تَبِعَكَ﴾ انقاد لك. ﴿منهم﴾ من ذرية آدم.

التراكيب:

قوله ﴿فبعزَّتك لأُغوينَّهم أجمعين﴾ الفاء لترتيب مضمون الجملة على الإنظار. والباء للقسم. ﴿ولأغوينهم﴾ جواب القسم. وقوله ﴿أجمعين﴾ توكيد للمفعول فى ﴿لأغوينهم﴾. وقوله ﴿فالحقَّ والحقَّ أقول﴾ بنصبهما على أن الأول مقسم به حذف منه حرف القسم فانتصب، كقول الشاعر:

إِنَّ عَلَيْكَ اللهَ أَنْ تُبَايِعَا ... تُؤْخَذُ كَرْهًا أو تَجِيءُ طَائِعًا

وجواب القسم ﴿لأملأن﴾ وما بينهما اعتراض. وقيل: هو منصوب على

الإغراء أى: فالزموا الحق، ﴿ولأَمْلأَنَّ﴾ جواب قسم محذوف. و﴿الحقَّ﴾ الثانى منصوب بأقول وقُدِّم عليه للحصر. وأما على قراءة رفعهما فالأول: مبتدأ وخبره محذوف أى: فالحق قسمى أو هو خبر مبتدأ محذوف والتقدير: أنا الحق أو قولى الحق. و﴿لأملأن﴾ جواب القسم محذوف، ورفع الثانى على أنه مبتدأ خبره جملة ﴿أقول﴾. والرابط محذوف أى: أقوله كقراءة ابن عامر ﴿وكل وعد الله الحسنى﴾ [النساء: ٩٥] وكقول أبى النجم:

قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الخِيَارِ تَدَّعِى ... عَلَىَّ ذَنبًا كُلُّه لَمْ أَصْنَعِ

برفع (كل) ليتأتى عموم السلب، وشمول النفى المقصود للشاعر. وأما على قراءة جرهما فالأول: مجرور بواو قسم محذوفة، والثانى: مجرور بالعطف عليه كقولك: فوالله والله. وجواب القسم ﴿لأملأن﴾. وأقول «اعتراض بين القسم وجوابه» وأما على قراءة رفع الأول ونصب الثانى، فتخرج على أن الأول رفع على أنه مبتدأ أو خبر كما تقدم، وعلى أن الثانى مفعول لأقول وقُدِّم عليه للحصر أى: لا أقول إلا الحق. والفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها.

وقوله ﴿أجمعين﴾ توكيد للضمير فى ﴿منك﴾، والضمير فى ﴿منهم﴾ والمعنى لأملأن جهنم من المتبوعين والتابعين أجمعين.

المعنى الإجمالى:

قال إبليس: فأقسم بسلطانك وقهرك لأضلنهم كلهم إلاّ من أخلصته لعبادتك أو أخلص قلبه لك. قال الله فأنا الحق ولا أقول إلا الحق، لأملأن جهنم من جنسك ومن أتباعك من ذرية آدم لا أفرّق بين متبوع وتابع بل أدخلهم فيها أجمعين.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - اعتراف إبليس بعزة الله مع تكبره.
٢ - إصراره على إضلال الخلق.
٣ - يأسه من المخلصين.
٤ - وعيد الله له بجهنم مع أتباعه.
٥ - ستمتلئ جهنم بالكافرين.
٦ - أن الكفار كلهم فى النار.

قال تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨)﴾

المناسبة:

هذا عود على بدء؛ لتعظيم القرآن وتمجيده، كما هو الملاحظ فى السور المبدوءة بالفواتح المفرقة إذ تبدأ بعد الحرف بتعظيم القرآن وتمجيده، ثم تذكر اختلاف الناس عليه، ثم ما يؤول إليه حال الفريقين، ثم يعود إلى تمجيده وتعظيمه ليكون مسك الختام.

المفردات:

﴿أسألكم﴾ أطلب منكم. ﴿أجر﴾ جُعل. ﴿المتكلفين﴾ المتصنعين المتحلين بما ليسوا من أهله. ﴿إنْ﴾ بمعنى ما. ﴿هو﴾ أى: القرآن. ﴿ذكر﴾ عظة وتذكير. ﴿للعالمين﴾ للثقلين كافة. ﴿ولتعلمن﴾ ولتعرفن. ﴿نبأه﴾ خبره الصادق. ﴿بعد حين﴾ بعد زمان.

التراكيب:

مرجع الضمير فى ﴿عليه﴾ للقرآن وقيل: على تبليغ الوحى. والظاهر الأول. وقوله ﴿مِنْ أجر﴾ مِنْ حرف جر صلة جىء به؛ لاستغراق النفى، وأجر هو المفعول الثانى لسأل، وهو منصوب بفتحة مقدرة منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر. وقوله ﴿للعالمين﴾ جمع عالم وهو ما سوى الله عز وجل فهو بعمومه يشمل جميع المخلوقات التى نصبت علامة ودلالة على الخالق عز و جل. لكن لمَّا كان المراد بالذكْر: الموعظة والتخويف وتذكير العواقب كان خاصًا بالمكلفين، وهما الثقلان خاصة. وقوله ﴿ولتعلمن نبأه بعد حين﴾ اللام موطئة للقسم، و(علم) بمعنى(عرف) فهو متعد لمفعول واحد، وهو نبأه. وقيل: إن علم على بابه فهو متعد لمفعولين الأول: ﴿نبأه﴾ والثانى: هو قوله ﴿بعد حين﴾.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - لفت نظر الكفار لصدق الرسول ﷺ.

٢ - أنه لا يطلب أى أجر على تبليغ القرآن.

٣ - أن سيما التصنع غير معهودة فيه.

٤ - هذا القرآن لتذكير الإنس والجن.

٥ - الوعد بنصرة الرسول ﷺ.

٦ - وعيد قريش وتهديدهم.

٧ - أن الله متم نوره.

******

سورة ق

آياتها ٤٥ — ترتيبها ٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ
فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ
رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ
حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ
۝٥﴾

المناسبة:

لما أخبر فى السورة السابقة أن هؤلاء الأعراب الذين قالوا آمنا لم يكن إيمانهم حقًا. وانتفاء إيمانهم دليل على إنكار القرآن والنبوة والبعث، صدر هنا بذكر القرآن والإنذار والبعث.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿قافْ﴾ بسكون الفاء، وقرئ بفتحها، وقرئ بكسرها، وقرئ بضمها أيضًا. وقرأ الجمهور ﴿أإذا﴾ بهمزة الاستفهام، وقرئ ﴿إذا﴾ بهمزة واحدة. وقرأ الجمهور ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام وتشديد الميم. وقرئ ﴿لِما﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم.

المفردات:

﴿ق﴾ من الفواتح الكريمة، وقد تقدم الكلام عليها فى ﴿ص﴾ معنىً وإعرابًا. ﴿المجيد﴾ الكريم الشريف العظيم المبارك. ﴿كنا﴾ صرنا. ﴿رجع﴾ رد وإرجاع. ﴿بعيد﴾ أي مستبعد فى الأوهام والفكر أو فى العادة أو فى الإمكان. ﴿تَنقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أى تبليه من أجسادهم، وتأكله من لحومهم

وعظامهم. ﴿كتاب﴾ سجل وديوان. ﴿حفيظ﴾ أى حافظ حاوٍ لكل ما تنقصه الأرض منهم، ومتى تنقصه وأين يذهب؟ وهو أيضًا حافظ لأقوالهم الخبيثة. ﴿بالحق﴾ بالقرآن. ﴿أمر﴾ شأن. ﴿مريج﴾ مضطرب مختلط فاسد من قولهم: مرج الخاتم فى أصبعى إذا قلق من الهزال، ومن قولهم: مرج البيض إذا فسد.

التراكيب:

جواب القسم فى قوله تعالى ﴿والقرآن المجيد﴾ محذوف تقديره: إن محمدًا لرسول، وإن الساعة لآتية ويدل عليه الآيتان بعده. و﴿بل﴾ للإضراب الانتقالى من حال حقية الرسول والبعث إلى حال عجب الكفار من الرسول والبعث. وقوله ﴿فقال الكافرون﴾ الفاء للتفصيل كقوله ﴿ونادى نوح ربه فقال﴾[نوح: ٤٥] ومقتضى الظاهر أن يقال (فقالوا) ولكنه وضع الظاهر موضع الضمير؛ لتسجيل هذا الوصف الشنيع عليهم، وللإشعار بعلية هذه المقالة. وقوله ﴿أإذا متنا وكنا ترابًا﴾ على قراءة الجمهور بالاستفهام؛ لتقرير التعجب وتأكيد الإنكار. وعلى قراءة ﴿إذا متنا﴾ بهمزة على صورة الخبر، فيجوز أن يكون استفهامًا حذفت منه الهمزة؛ لظهورها، ويجوز أن يكون خبرًا، والمقصود منه الاستبعاد. والعامل فى ﴿إذا﴾ جواب المحذوف وتقديره: نرجع ودل عليه قوله ﴿ذلك رجع بعيد﴾.

وقوله ﴿قد علمنا ما تنقص الأرض منهم﴾ رد لاستبعادهم الرجع؛ لأنّ من كان عالمًا بذلك كان قادرًا على رجعهم، وقوله ﴿وعندنا كتاب حفيظ﴾ جملة حالية. و﴿بل﴾ فى قوله ﴿بل كذّبوا بالحق﴾ للإضراب الانتقالى من بيان شناعتهم السابقة إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم بالقرآن الثابت. وقوله ﴿لما جاءهم﴾ على قراءة الجمهور أى: حين جاءهم بمعنى: أنهم سارعوا بتكذيبه من غير تفكر وتأمل. وعلى قراءة ﴿لِما﴾ بكسر اللام والتخفيف، فاللام فيه للتوقيت، وما مصدرية، والمعنى: كذبوا به وقت مجيئه إياهم. والفاء فى قوله ﴿فهم فى أمر مريج﴾ للسببية.

المعنى الإجمالى:

هذا تحد لكم يا أرباب الفصاحة والبيان، تعجزون عن محاكاته والإتيان بمثله، مع أنه منظوم من مثل ما تنظمون منه كلامكم. وأقسم بكلامى الكريم الشريف العظيم المبارك المشتمل على خيرى الدنيا والآخرة إن محمدًا لرسول، وإن الساعة لآتية. لقد استغرب هؤلاء الكفار، وأنكروا أشد الإنكار لمجىء رسول عظيم يبلغهم عن ربه، ويعلمهم ويخوفهم، وهو من جنسهم فى البشرية، ونوعهم فى العربية والأمية. فقالوا هذا أمر غريب. أحين نموت ونبلى ونصير ترابًا نرجع؟ ذلك رد مستبعد لا يخطر بالبال ولا يدور فى الخيال.

قد علمنا ما أبلته الأرض من أجسادهم، والحال أن لدينا سجلاً حاويًا لما تبليه الأرض منهم، ومتى تبليه، وأين تبليه؟ بل لهؤلاء شناعات أفظع من هذا وهى تكذيبهم بالقرآن الثابت المعجز فسبَّبَ لهم هذا التكذيب اضطراب الأفكار، وفساد النفوس.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تحدى العرب بالقرآن.

٢ - بيان شرف القرآن وكثرة خيره.

٣ - استغراب الكفار لمجىء الرسول منهم.

٤ - بيان سبب الاستغراب.

٥ - أن الكذب لا يأتى بخير.

٦ - الكفار ينكرون البعث.

٧ - قدرة الله على البعث.

٨ - علم الله بكل ما يبلى من الموتى.

٩ - تدوينه فى كتاب.

١٠ - اضطراب الكفار وفساد رأيهم.

قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا
وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ
وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ
مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ
وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾
رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

المناسبة:

لما بيّن أنهم أنكروا البعث واستبعدوه، وذكر تمام قدرته على البعث بالطريق العلمى، شرع فى بيان الدليل المادى الحسى على إمكان البعث ليدفع بذلك فى نحر استبعادهم.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿تبصرةً﴾ بالنصب، وقرئ بالرفع. وقرأ الجمهور ﴿باسقات﴾ بالسين، وقرئ ﴿باصقات﴾ بالصاد.

المفردات:

﴿ينظروا﴾ يبصروا. ﴿بنيناها﴾ رفعناها بلا عمد. ﴿زيناها﴾ جملناها وزخرفناها يعنى بالكواكب. ﴿فروج﴾ فتوق وشقوق. ﴿مددناها﴾ بسطناها. ﴿ألقينا﴾ وضعنا. ﴿رواسى﴾ أى جبالاً ثوابت. ﴿زوج﴾ نوع وصنف. ﴿بهيج﴾ أى: حسن المنظر يبهج أى: يسر من نظر إليه. ﴿تبصرة﴾ أى: آية مستمرة منصوبة أمام أبصارهم. ﴿ذكرى﴾أى: آية متجددة مذكرة عند التناسى. ﴿منيب﴾ راجع إلى ربه متفكر فى بدائع صنعه. ﴿مباركًا﴾ كثير المنفعة. ﴿جنات﴾ أى: بساتين وأشجار ذات ثمار. ﴿الحصيد﴾ فعيل بمعنى مفعول، والمراد به كل ما يحصد ويقطع بالمنجل من الزرع والنبات الذى له حب. ﴿باسقات﴾ بالسين أى: طوالاً. جمع باسقة. ﴿باصقات﴾ لغة فى باسقات، وهى لغة بنى العنبر من تميم، يبدلون السين صادًا إذا وليتها قاف أو طاء أو عين أو خاء. ﴿طلع﴾ هو ما

يبدو من ثمرة النخل فى أول ظهورها. ﴿نضيد﴾ متراكم بعضه فوق بعض. ﴿أحيينا﴾ بعثنا وحركنا وأنمينا. ﴿ميتًا﴾ جامدة هامدة. وتذكيره باعتبار المكان. وقيل: إن ميتًا يستوى فيه المذكر والمؤنث ﴿الخروج﴾ البعث من القبور.

التراكيب:

قوله ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم﴾ الاستفهام فيه للتوبيخ. والفاء للعطف على محذوف تقديره: أعموا فلم ينظروا. وقوله ﴿فوقهم﴾ منصوب على الحال من السماء وهى حال مؤكدة. وقوله ﴿كيف بنيناها﴾ كيف منصوبة ببنيناها على الحال. وجملة ﴿بنيناها﴾ بدل اشتمال من السماء. وقوله ﴿وما لها من فروج﴾ الواو للحال، وقوله ﴿والأرض مددناها﴾ معطوف على موضع إلى السماء المنصوب بينظروا. والتقدير: وأفلم ينظروا الأرض. ويجوز أن ينتصب على الاشتغال. على تقدير: «ومددنا الأرض» وهو أظهر. وقوله ﴿تبصرة﴾ بالنصب مفعول لأجله، والعامل فيه ﴿بنيناها﴾ و﴿ذكرى﴾ معطوف عليه أى: للتبصرة والتذكير. وقيل: منصوبان بفعل مقدر من لفظهما أى: بصرناهم تبصرة وذكرناهم ذكرى. وقيل: هما حالان من فاعل بنينا ومددنا أى مبصرين ومذكرين. أو حال من المفعول أى ذات تبصرة وتذكير لمن يراها. وعلى قراءة الرفع هى: خبر لمبتدأ محذوف أى: هى تبصرة وذكرى. هذا ويجوز أن يكون قوله ﴿تبصرة﴾ راجعًا إلى السماء، وقوله ﴿ذكرى﴾ راجعًا إلى الأرض. فالسماء للتبصرة والأرض للتذكرة. ويجوز أن يكون كل واحد من المصدرين موجودًا فى كل واحد من الأمرين. وقوله ﴿لكل عبد منيب﴾ متعلق بكل من المصدرين. وقوله ﴿وحب الحصيد﴾ فيه حذف الموصوف، وإقامة الصفة مقامه، للعلم به والتقدير: وحب الزرع الحصيد. وإنما خص الحب بالذكر؛ لأنه المقصود المهم بالإنبات. وقوله ﴿باسقات﴾ حال من النخل مقدرة؛ لأنها وقت الإنبات لم تكن طوالاً. وإنما خص النخل بالذكر لفرط ارتفاعها وكثرة منافعها، ولذلك شبه رسول الله ﷺ المسلم بها، ولأنها أيضًا مع فرط طولها دقيقة الجذور جدًا فكانت لذلك آية خاصة. وقوله ﴿لها طلع نضيد﴾ الجملة: حال من الضمير فى باسقات على التداخل، أو حال أخرى من النخل. وقوله ﴿رزقًا للعباد﴾ يجوز أن يكون قوله ﴿رزقًا﴾ مفعولاً لأجله، والعامل فيه (أنبتنا) وللعباد صفة له، ولم يقيد العباد بوصف الإنابة كما تقدم فى قوله ﴿لكل عبد منيب﴾؛ لأن الرزق لعموم العباد، أما التبصرة والتذكرة فلا ينتفع بها إلا

المنيبون، وقيل: إن رزقًا مصدر من معنى أنبتنا. لأن النبات رزق. وقوله ﴿كذلك الخروج﴾ كذلك (خبر مقدم) والخروج (مبتدأ مؤخر) وإنَّما قدَّم الخبر؛ لإفادة الحصر، ومرجع الإشارة إلى الحياة المستفادة من الإحياء.

المعنى الإجمالي:

أعموا فلم يمدوا أعينهم إلى السماء حالة كونها فوق رءوسهم يسهل النظر إليها، فلم ينظروا إلى كيفية بنائها وعجيب صنعها، وجميل زخرفتها؟! والحال أنها خالية من الصدوع والشقوق، مع ضخامتها واتساعها وارتفاعها بغير عمد، وكذلك أغفلوا فلم ينظروا إلى الأرض؟! لقد بسطناها ووضعنا فيها جبالاً ترسيها حتى لا تميد بالناس، وأنبتنا فيها من كل نوع يدخل البهجة والسرور على من ينظر إليه. لقد فعلنا ذلك؛ ليكون آية مستمرة منصوبة أمام أبصارهم، وآية متجددة مذكرة عند التناسى، ينتفع بها كل عبد صالح. وأكثرنا من إنزال الماء العظيم المنافع إلى الأرض، فأنشأنا به بساتين، وأشجاراً كثيرة، وحب الزرع الذى يحصد ويقطع بالمناجل وتنال منافعه. وأيضًا أنبتنا النخل حالة كونها طوالاً وحالة كونها لها ثمر فى أول ظهوره متراكم ملتصق بعضه ببعض بداخل الكفرى كحب الرمان. لقد فعلنا هذا؛ لأجل رزق العباد، وبعثنا بهذا الماء بلدة جامدة هامدة. كذلك بعث العباد من قبورهم يوم القيامة.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - وجوب النظر والتدبر فى السموات والأرض.
٢ - توبيخ من لم ينتفع بنظره.
٣ - أن السماء مبنية.
٤ - أنها محكمة.
٥ - نصب الآيات الدائمة والمتجددة أمام الأبصار.
٦ - لا يتذكر إلا المنيبون.
٧ - فى النخيل آية ظاهرة على قدرة الله.
٨ - أن رزق المؤمن والكافر على الله.
٩ - فى إحياء الأرض الجامدة الهامدة بسبب المطر آية واضحة للقدرة على إحياء الموتى.
١٠ - تهوين أمر البعث.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾

المناسبة:

لمّا بيّن فيما سبق أن الكفار كذّبوا بالحق لما جاءهم ذكر بعض الأمم المكذبة برسلها؛ تسلية لرسول الله ﷺ؛ وتهديداً لقريش، وتقريرًا لحقية البعث ببيان اتفاق كافة الرسل عليه وتعذيب منكريه.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿الأيكة﴾ بلام التعريف. وقرئ ﴿ليكة﴾ بوزن ليلة. وسها أبو حيان - عفا الله عنه - فعكس ونسب القراءة الأخيرة إلى الجمهور.

المفردات:

﴿الرس﴾ تطلق على معان: منها الحفر، والدس، ودفن الميت، والرّز، والبئر المطوية بالحجارة، والمراد بها هنا بئر كانت لبقية من ثمود كذبوا نبيهم ورسوه فى بئر أى: دفنوه بها. ﴿إخوان لوط﴾ أى: قوم لوط، والمراد بالأخوة هنا: الخلطة والمصاهرة؛ لأنه - عليه السلام - خالطهم، وتزوج منهم لكنه ابن هاران أخى إبراهيم - عليه السلام - وأصله من بابل بالعراق، وهو مهاجر إلى فلسطين ثم نزل سادوم وعامورة من دائرة الأردن وأرسله الله إلى أهلها. ﴿تُبَّع﴾ رجل صالح من أهل اليمن يقال له: تبع الحميرى كان قبل ولادة النبى ﷺ بتسعمائة سنة. روى عن ابن عباس أنه قال: كان تبع نبيًا. وقالت عائشة: كان رجلاً صالحًا. وقد دعا قومه إلى الإسلام فكذبوه، فأهلكهم الله. ﴿فحق﴾ فوجب وثبت وحلّ عليهم. ﴿وعيد﴾ أى: وعيدى بالعقاب لهم.

التراكيب:

قوله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ استئناف وارد؛ لتقرير حقية البعث. وإنما أُنِّثَ الفعل؛ لمراعاة معنى القوم لأنه بمعنى الأمة أو الجماعة. وقوله ﴿كُلٌّ كذب الرسل﴾ التنوين فى ﴿كلٌّ﴾ عِوَضٌ عن المضاف إليه والتقدير: كل واحد أو كل قوم منهم. وإنما أفرد الضمير فى ﴿كذَّب﴾؛ لملاحظة لفظ كل. وإنما نسبهم إلى تكذيب جميع الرسل؛ لأن رسالة الرسل واحدة فى الدعوة إلى التوحيد والبعث فتكذيب واحد منهم تكذيب لجميعهم. ومن قال: إن تُبَّعًا لم يكن نبيًّا فيكون تكذيب قومه للرسل بالواسطة؛ وذلك لأنَّ قوم تبع كذَّبوا الرسول الذى دعاهم تبع إلى شريعته بواسطة تكذيبهم لتبع.

المعنى الإجمالى:

جحدت قبل قريش جماعة نوح وأهل البئر المطوية من بقية ثمود، وثمود وأهل الأحقاف وفرعون مصر وأصهار لوط، وأهل مدين أصحاب الأشجار الكثيرة. وجماعة تبع. كل واحد من هؤلاء المذكورين جحد الرسالة، وأنكر البعث فاستحقوا كلمة العذاب، ونزل بهم أليم العقاب.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - اتفاق الرسل على البعث.

٢ - إنكار الأمم السابقة للبعث.

٣ - تكذيب رسول واحد تكذيب للرسل كلهم.

٤ - تدمير من كذب بالبعث.

******

قال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ ١٥ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر الله بعض البراهين الدالة على البعث ساق هذه الآيات على سبيل الاستئناف المقرر لصحة البعث الذى حكيت أحوال المنكرين له من الأمم المهلكة. وفيها أيضًا إقامة حجة واضحة وبراهين جلية للدلالة على البعث وتوبيخ الكفار الذين ينكرونه.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿يَلفظ﴾ بفتح الياء مبنيًا للفاعل، وقرئ بضم الياء مبنيًا للمفعول.

المفردات:

﴿أفعيينا﴾ من عيى بالأمر كرضى إذا عجز عنه، ولم يطق إحكامه، أى: أفعجزنا. ﴿بالخلق الأول﴾ هو إنشاء الإنسان من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة على التدريج. ﴿لَبس﴾ خلط وشبهة وحيرة وشك. ومنه الحديث «فخفت أن يكون قد التبس بى» أى: خولطت، ومنه قول على - رضى الله عنه-: يا جار: إنه لملبوس عليك الحق. اعرف الحق تعرف أهله، والعرب يقولون: فى رأيه لبس، أى: اختلاط. ﴿خلق جديد﴾ يعنى: البعث. ﴿الإنسان﴾ المراد به الجنس. ﴿توسوس﴾ تحدث فالوسوسة هنا حديث النفس، وما يخطر بالبال. وأصل الوسوسة: الصوت الخفى، ومنه وسواس الحلى. والجامع بين المعنى اللغوى والمعنى المراد هنا هو الخفاء فى كل. ﴿أقرب﴾ المراد من القرب هنا قرب العلم بقرينة اقترانه بالعلم فى الآية، فهو كمعنى المعية العامة، وهى المعية بالسمع

والبصر والعلم. وقيل المراد: قرب الملكين، وهذا بعيد. ﴿حبل﴾ يعنى: عرق. ﴿الوريد﴾ هو عرق كبير يجرى فيه الدم، ويصل إلى كل جزء من أجزاء البدن. ويكتنف صفحتى العنق. وهو فى القلب الوتين وفى الظهر الأبهر وفى الذراع والفخذ الأكحل والنسا، وفى الخنصر الأُسيلم. ﴿يتلقى﴾ يأخذ ويثبت. ﴿المتلقيان﴾ الملكان الموكلان بالإنسان. ﴿قعيد﴾ أى: مقاعد كجليس بمعنى: مجالس. ويحتمل أن يكون قعيد بمعنى قاعد، وإنما عدل من فاعل إلى فعيل للمبالغة. ﴿يلفظ﴾ يرمى من فمه من خير أو شر. ﴿لديه﴾ عنده. ﴿رقيب﴾ حافظ يرقب قوله ويكتبه. ﴿عتيد﴾ حاضر معد مهيأ لكتابة ما يصدر عنه.

التراكيب:

قوله ﴿أفعيينا بالخلق الأول﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى النفى. والفاء للعطف على مقدر ينبئ عنه العى من القصد والمباشرة. كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟ والباء بمعنى عن. وقوله ﴿بل هم فى لبس من خلق جديد﴾ بل فيه للعطف على مقدر يدل عليه الحال كأنه قيل: ليسوا فى لبس من الخلق الأول بل هم فى لبس من خلق جديد. وفى هذا توبيخ لهم، وإقامة للحجة عليهم حيث أقروا بالخلق الأول، وترددًوا فى الخلق الثانى الذى هو البعث، مع أنه فى الأذهان أهون؛ لأن الأول إيجاد من العدم، والثانى من موجود. وقوله ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه﴾ الواو للحال ونعلم خبر لمبتدأ محذوف تقديره: نحن أى: ونحن نعلم. والجملة: فى محل نصب على الحال المقدرة، ويجوز أن تكون مستأنفة. و﴿ما﴾ يجوز أن تكون موصولة والضمير فى به لما، والباء: قال أبو السعود: زائدة كما فى صوت بكذا. ويجوز أن تكون (ما) مصدرية قالوا: والباء حينئذ يجوز أن تكون زائدة، والتقدير: ونعلم وسوسة نفسه إياه. أو للتعدية والتقدير: ونعلم وسوسة نفسه له. والضمير للإنسان؛ لأنهم يقولون: حدث نفسه بكذا كما يقولون حدثته نفسه بكذا، فجعل الإنسان مع نفسه كشخصين

تجرى بينهما مكالمة ومحادثة، فتارة يحدثها، وتارة أخرى تحدثه. وقوله ﴿حبل الوريد﴾ الإضافة فيه بيانية كقولهم: بعير سانية. وقوله ﴿إذ يتلقى المتلقيان﴾ العامل فى إذ أقرب بما فيها من معنى الفعل. والمفعول محذوف والتقدير: يتلقى المتلقيان ما يعمله. وقيل: إذ منصوب باذكر مقدرًا وهو مستأنف لتقرير مضمون ما قبله. ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانًا للقرب على معنى نحن أقرب إليه مطلعون على أعماله؛ لأن حفظتنا وكتبتنا موكلون به. وقوله ﴿عن اليمين وعن الشمال قعيد﴾ قعيد مبتدأ وخبره ما قبله، والجملة فى محل نصب على الحال من ﴿المتلقيان﴾ ولم يقل قعيدان؛ لأن فعيلا يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع كما فى قوله تعالى: ﴿والملائكة بعد ذلك ظهير﴾ فهو مفرد أريد منه المثنى، وهذا مذهب الفراء، وعليه فلا يحتاج إلى تقدير. قال أبو حيان: والأجود أن يكون حذف من الأول لدلالة الثانى عليه والتقدير: عن اليمين قعيد يعنى وعن الشمال قعيد كما **قال الشاعر:**

رَمَانِى بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِى   بَرِيئًا ومِنْ أَجْلِ الطَّوِىِّ رَمَانِى

أى: كنت منه بريئًا ووالدى بريئًا. ومذهب المبرد: أن التقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال فأخر قعيد عن موضعه. وقوله ﴿ما يلفظ من قول﴾ مِنْ زائدة؛ لاستغراق النفى داخلة على المفعول. والفاعل ضمير يعود على الإنسان على قراءة الجمهور. وأمّا من قرأ ﴿يُلفَظُ﴾ بالبناء للمفعول فنائب الفاعل من قول. وقوله ﴿لديه رقيب عتيد﴾ لديه: خبر مقدم؛ ورقيب: مبتدأ مؤخر، والجملة: فى محل نصب على الحال. فإن قيل: قد علم من قوله ﴿إذ يتلقى المتلقيان. .﴾ الآية أنهما يحفظان أعماله فما فائدة قوله ﴿ما يلفظ من قول﴾ الآية؟. أجيب بأنه يعلم من الآية الثانية أن الملكين معدان لذلك بخلاف الأولى، فإنه لا يعلم منها ذلك. وأيضًا فى الثانية التصريح بأن المَلَكَ يضبط كل لفظ، ولا يعلم ذلك من الأولى. هذا وإذا كان على اللفظ رقيب عتيد فمن باب أولى أن يكون على الفعل.

المعنى الإجمالى:

أقصدنا إيجاد الإنسان لأول مرة من العدم فعجزنا عنه حتى يتوهم عجزنا عن الإعادة؟.. هم ليسوا بمنكرين لهذا الخلق الأول، بل هم فى خلط وشبهة وحيرة وشك من الإعادة. مع أن الإعادة أهون فى الأذهان من البدء. فما أحراهم بالتوبيخ والإنكار؟ ولقد أوجدنا الإنسان ونحن نعلم خطرات نفسه ونحن أعلم به منه. ومع ذلك يأخذ ويُثْبِت ملكان جميع ما يعمله، عن اليمين مجالس وعن الشمال مجالس. ما يرمى من كلمة فى خير أو شر إلاّ عنده ملك يحفظها، ويدونها فى صحيفته. وهذا الملك معد مهيأ لذلك وهو حاضر معه.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تقرير صحة البعث.

٢ - توبيخ الكفار على الإقرار بالخلق الأول واضطرابهم فى الإعادة.

٣ - إحاطة علم الله بهواجس الأنفس.

٤ - أن الله أعلم بالإنسان من نفسه.

٥ - تربية الخوف والمهابة من الله عز وجل.

٦ - سكون قلوب الصالحين وأنسهم به.

٧ - أن على الإنسان كاتبين يثبتان ما يعمل من خير أو شر.

٨ - كل ما يقوله الإنسان مسجل عليه.

******

قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ
ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ
يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ
كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ
﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر استبعادهم للبعث، وردَّ عليهم بتحقيق قدرته تعالى وعلمه، وبَيَّنَ أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم، أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه - لا محالة - من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال.

القراءة:

قرأ الجمهور: ﴿سكرة﴾.. بالإفراد، وقرأ ابن مسعود ﴿سكرات﴾ بالجمع. وقرأ الجمهور بفتح التاء فى ﴿كنتَ﴾ والكاف فى ﴿عَنْكَ﴾، و﴿غطاءَك﴾ و﴿بصرُكَ﴾ وقرئ بكسر التاء والكاف. قرأ الجمهور: ﴿عتيدٌ﴾ بالرفع، وقرئ بالنصب.

المفردات:

﴿سكرة الموت﴾ شدته الذاهبة بالعقل عند النزع. ﴿بالحق﴾ أى: بحقيقة الأمر الذى نطقت به كتب الله ورسله، أو حقيقة الأمر وجلية الحال من سعادة الميت وشقاوته. أو بالأمر الثابت الذى لابد أن يكون. ﴿تحيد﴾ تهرب منه وتنفر عنه. تقول: أعيش كذا وأعيش كذا، فمتى فكر فى قرب الموت حاد بذهنه عنه، وأمل طول الأجل.

﴿الصور﴾ القرن الذى ينفخ فيه إسرافيل. ﴿الوعيد﴾ أى يوم إنجاز العذاب الموعود للكفار. ﴿سائق﴾ حاث على السير من الملائكة. ﴿شهيد﴾ أى مخبر بأعمالها. قيل: هو ملَكَ آخر يشهد عليها بما فعلت. وقيل: الشهيد الكتاب الذى يلقاه منشوراً. وقيل: السائق والشهيد ملَكَ واحد جامع بين الوصفين

كأنه قيل: معها مَلَك يسوقها ويشهد عليها. ﴿غفلة﴾ لهو وسهو. ﴿كشفنا﴾ أزحنا. ﴿غطاءك﴾ حجاب غفلتك. ﴿حديد﴾ نافذ قوى. ﴿قرينه﴾ المَلَكَ الذى يسوقه أو المَلَكَ الموكَّل بتعذيبه من زبانية جهنم ﴿عتيد﴾ معد حاضر.

التراكيب:

«قوله» ﴿وجاءت سكرة الموت بالحق﴾ الواو للعطف على ﴿إذ يتلقى﴾، والباء فى بالحق للتعدية أى: أحضرت سكرة الموت الحق، ويجوز أن تكون للحال أى: متلبسة بالحق، والتعبير بالماضى فى هذا، والذى بعده للإيذان بتحقق الوقوع.

وقوله ﴿ذلك ما كنت منه تحيد﴾ على تقدير القول أى: يقال له فى وقت الموت: ﴿ذلك ما كت منه تحيد﴾. والإشارة فيه إلى الموت، والخطاب للإنسان الذى جاءته سكرة الموت. وقوله ﴿ونفخ فى الصور﴾ معطوف على قوله ﴿وجاءت سكرة الموت﴾ والمراد النفخة الثانية. وقوله ﴿ذلك﴾ الإشارة فيه إلى الزمان المفهوم من نفخ، فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمان. أى: يوم النفخ. وقيل: الكلام على حذف المضاف أى: وقت ذلك. وإنما قال: ﴿يوم الوعيد﴾ مع أنه يوم الوعد أيضًا؛ لتهويله، ولذلك بدئ ببيان حال الكفرة. وقوله ﴿معها سائق﴾ ﴿معها﴾ خبر مقدم و﴿سائق﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة: فى محل جر صفة لنفس. وجوز أن تكون فى محل رفع صفة لكل. وأنكر أبو حيان على الزمخشرى إنكاراً شديداً لما جعلها فى محل نصب على الحال من كل؛ لتعرفه بالإضافة إلى ما هو فى حكم المعرفة. قال أبو حيان: هذا كلام ساقط لا يصدر عن مبتدئ فى النحو؛ لأنه لو نعت كل نفس لما نعت إلا بالنكرة. فهو نكرة على كل حال فلا يمكن أن يتعرف كل وهو مضاف إلى نكرة.

وقوله: ﴿لقد كنتَ فى غفلة من هذا﴾ محكى بإضمار قول هو: إما صفة أخرى، وإما على سبيل الاستئناف البيانى. كأنه قيل: فماذا يفعَل بها؟ فقيل: يقال: لقد كنت فى غفلة من هذا. وقرأ الجمهور بفتح تاء الخطاب حملاً على لفظ كل من التذكير أو على التأويل بالشخص كما فى قول جبلة بن حريث:

يَا نَفسُ إنَّكَ بِـاللَّذَّاتِ مَسْرُورُ   فَاذْكُر وَهَلْ يَنْفَعَنكَ اليَوْمَ تَذْكِيرُ

وأما من قرأ بكسر التاء فالخطاب للنفس. وكذلك الشأن فيمن قرأ: ﴿غطاءك فبصرك﴾ على التذكير أو التأنيث.

وقوله: ﴿وقال قرينه هذا ما لدىَّ عتيد﴾ معطوف على ﴿وجاءت كل نفس﴾ وإنما عطفت هذه الجملة؛ لأن المقصود التشريك مع ما قبلها فى الحصول أعنى: مجىء كل نفس مع السائق والشهيد، وقول قرينه هذه المقالة. والإشارة فيه يجوز أن تكون للكافر إن قلنا: إن القرين هو المَلَك الموكل بسوقه، والتعبير عنه بما التى لغيرٍ العاقل؛ لأنه لم ينهج نهج العقلاء. والتقدير: هذا الكافر الذى أسوقه لدىَّ حاضر. ويجوز أن تكون الإشارة للعذاب إن قلنا: إن القرين من زبانية جهنم، والتقدير: هذا العذاب لدىَّ لهذا الكافر حاضر. ويجوز أن تكون الإشارة إلى صحيفة عمله إن قلنا: إن القرين هو المَلَكَ الموكل به فى الدنيا. والتقدير: هذا الذى سجلته عليه حاضر مهيأ للعرض. و«ما» إن جعلت نكرة موصوفة فـ﴿عتيد﴾ صفتها، وإن جعلت موصولة فـ﴿عتيد﴾ بدل منها ،أو خبر بعد خبر أو خبر لمبتدأ محذوف. ومن قرأ ﴿عتيدًا﴾. بالنصب فهو على الحال، والأولى حينئذ أن تكون ما موصولة.

المعنى الإجمالى:

وأحضرت شدة الموت الذاهبة بالعقل عند النزع حقيقة الأمر الذى نطقت به كتب الله ورسله. ذلك الموت الذى كنتَ تنفر عنه وتهرُب منه. وصوت إسرافيل فى القرن الصوت الثانى. ذلك الوقت يوم إنجاز العذاب الموعود للكفار. وأتت كل نفس يصحبها مَلَك يسوقها، وشهيد يخبر بأعمالها. لقد كنتَ أيها الإنسان فى لهو وسهو من هذا النازل بك. فأزحنا عنك حجاب غفلتك. فبصرك اليوم حاد قوى نافذ.

وقال المَلَك الموكل به: هذا الذى عندى مهيأ حاضر.

ما ترشد إليه الآيات:

١- إن للموت سكرات.

٢- عند سكرة الموت يظهر الحق لمن عمى عنه.

٣- يصحب كل نفس إلى المحشر سائق وشهيد.

٤- عند القيامة لا توجد نفس تكذب بها.

٥- حب الله للعدل فى القضاء حتى على الكافرين.

*****

قال تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ (٢٤) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا
آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) ۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ
إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٢٩)
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾

المناسبة:

بعد أن أقيمت البيِّنة العادلة على إجرام المجرم أمَرَ الله -سبحانه- بإلقائه فى النار، وبيَّن كيف يتبرأ القرين من قرينه فى هذا الموقف الخطير.

القراءات:

قرأ عامة القراء: ﴿ألقيا﴾ بالألف، وقرأ الحسن البصرى شاذًا ﴿ألقين﴾ بنون التوكيد الخفيفة، وقرئ: ﴿يوم نقول﴾ بالنون. وقرئ ﴿يقول﴾ بالياء وقرئ ﴿يُقال﴾ مبنيًا للمفعول.

المفردات:

﴿ألقيا﴾ اطْرحا وارْميَا. ﴿عنيد﴾ مجاف للحق معارض للدين. ﴿للخير﴾ قيل: المال، وقيل: الإسلام. ﴿معتد﴾ ظالم متجاوز للحد فى الإثم. ﴿مريب﴾ شاكّ فى دينه. ﴿قرينه﴾ شيطانه ومغويه فى الدنيا. ﴿أطغيته﴾ أضللته. ﴿بعيد﴾ طويل لا يرجع عنه إلى الحق. ﴿لا تختصموا﴾ لا تعتذروا. ﴿بالوعيد﴾ بمجازاة العصاة. ﴿ما يبدل﴾ ما يغير. ﴿بظلام﴾ بذى ظلم.

التراكيب:

قوله ﴿ألقيا فى جهنم﴾ خطاب من الله تعالى للملَكين السائق والشهيد، وقيل: للمَلَكين من ملائكة العذاب، والألف فيه لضمير الاثنين. وقال مجاهد وجماعة: هو خطاب للواحد وهو: إما السائق وإما أحد زبانية جهنم، واعتذر لهذا القول عن مجيئه على صورة خطاب الاثنين بأن المقصود منه تثنية الفعل وتكريره، كأنه قيل «ألقِ ألقِ» على حد قول القائل:

فَإِنْ تَزْجُرَانِى يَا بنُ عَفَّانَ أنزَجِرْ ... وَإِنْ تَدعَانِى أَحْمِ عِرْضًا مُمَنَّعًا

أو بأن الألف ليست للتثنية لا حقيقة ولا صورة بل هى منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة والأصل: ألقين على حد قول ابن مالك:

وَأَبْدِلَنْهَا بَعْدَ فَتْحٍ أَلِفَا ... وَقْفًا كَمَا تَقُولُ فِى قِفَنْ قِفَا

ثم أجرى الوصل مجرى الوقف، قالوا ويؤيد هذا قراءة الحسن البصرى الشاذة: وظاهر اللفظ يؤيد أن الخطاب لاثنين لا لواحد، وليست هناك ضرورة تدعو إلى الخروج عن ظاهر اللفظ، وارتكاب هذه التمحلات.

وقوله: ﴿الذى جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه فى العذاب الشديد﴾ الذى مبتدأ متضمن لمعنى الشرط، وقوله ﴿فألقياه﴾ خبره، ودخلت فيه الفاء لأن المبتدأ فيه شَبَهٌ بالشرط. ويجوز أن يكون منصوبًا بدلاً من كل كفار، وجوز أن يكون مجرورًا بدلاً من كفار، ومن أعرب الموصول بدلاً جعل ﴿فألقياه﴾ توكيدًا. وقوله ﴿قال قرينه﴾ جاءت هذه الجملة بلا واو؛ لأنها قصد بها الاستئناف كما تستأنف الجمل الواقعة فى حكاية التقاول كأن الكافر قال: ربى هو أطغانى. ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته﴾ فهو جواب لمحذوف دل عليه المذكور فإنه منبئ عن سابقة كلام اعتذر به الكافر .. وهذا بخلاف قوله فيما تقدم ﴿وقال قرينه هذا ما لدىَّ عتيد﴾ فإنها عطفت على ما قبلها بالواو الدالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها فى الحصول يعنى مجىء كل نفس مع السائق والشهيد، وقول قرينه هذه المقولة. وقوله ﴿قال لا تختصموا لدىّ﴾ استئناف

بيانى وقع فى جـواب سؤال مقدر كأنه قـيل فماذا قال الله؟ فـقيل: قال: ﴿لا تخـتـصـمـوا لدىّ﴾ والفـاعل فى قـال هو الله. وقوله: ﴿وقـد قـدمت إليكم بالوعيد﴾ الجملة حـال، فيها تعليل للنهى على معنى: لا تختـصموا وقد صح عندكم أنى قـدمت إليكم بالوعيد حـيث قلت لإبليس: ﴿لأملأن جـهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ فاتبعتموه معرضين عن الحق فلا وجه للاختصام فى هذا الوقت. ولا تكون الجـملة حـالاً إلا على هذا التـأويل إذ لولاه لاخـتلف الزمانان: زمـان التقديم، وزمان النهى عن الاخـتصام. فإنه إنما صح التـقديم عندهم فى الآخرة فاجتمعا بذلك فى زمان واحـد، واجتماعهما فى زمن واحد واجب. والباء فى قـوله ﴿بالوعيـد﴾ إما مزيدة أو للتـعدية إن كـان قَدَّم بمعنى تقدم. وقوله: ﴿ما يبـدل القول. . .﴾ إلخ. يجوز أن يكون استئنافًا؛ لتيـئيسهم وتقرير عـدله سبحـانه. ويجوز أن يكون معـمولاً لقدمت. وعلى هذا فـقوله ﴿بالوعيد﴾ متعلق بمحذوف هو حال من المفعول أو من الفاعل والتقدير: قدمت إليكم هذا القول ملتـبسًا بالوعـيد مقتـرنًا به، أو قدمته إليكم مـوعدًا لكم به. وقوله: ﴿يوم نقول لجـهنم﴾ ﴿يوم﴾ منصوب بظلاَّم، ونفى الظلم عنه فى هذا اليـوم دليل على نفى الـظلم عنه فى غـيـره من باب أولى. ويجـوز أن يكون منصوبًا بمحـذوف تقديره: اذكر أو أنـذر. وقوله ﴿هل امتـلأت وتقول هل من مزيد﴾ المقصود من الاسـتفهام الأول تحقيق وعده تعالى بملئـها إذ قال ﴿لأملأن جهنم﴾ والاستفهام الثانى يجوز أن يكون بمعنى النفى يعنى أفىّ موضع للزيادة، ومعناه لا أحتاج إلى زيادة. وعلى هذا فالسؤال والجواب بعد امتلائها.

وبهذا قال الحسن وبعض أهل العلم. وقيل: المراد من الاستفهام الرغبة فى الزيادة والاسـتكثـار من الداخلين فـهو بمعنـى الطلب أى: زدنى. وعلى هذا فالسؤال والجـواب قبل امتلائهـا. وحينئذ فمزيد مـصدر يعنى هل من زيادة؟ فإنى لم أمتلئ بعد. وقد جاء فى صحـيحى البخارى ومسلم من حديث أنس ابن مالك عن النبى ﷺ قال: «لا تزال جهنم يلقى فـيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فـتقول قط قط وعزتك! فينزوى بعضها على

بعض وتقول قط قط وعـزتك وكرمك. ولا يزال فى الجنة فـضل حتى ينشئ الله لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة».

وهذا لفظ مسلم. وهذا السـؤال والجواب منها حـقيقـة وليس على منهاج التمثيل والتخييل والله أنطق كل شيء.

المعنى الإجمالى:

اطرحا فى النار المحرقة البعيدة القـاع كل جحود، مخالف للحق، معارض للدين، كثيـر الحيلولة بين الخير وأهله، متجـاوز للحد فى الإثم، مشكك فى الإسلام، الذى أشرك بالله، فاطرحاه فى العذاب القاسى الأليم.

قال شيطانه المقارن له فى دنياه متبرئًا منه معتذرًا إلى ربه: سيدنا ومالكنا ما أضللته، ولم أقـهره على تجاوز حده فى الإثم. ولكن كان هـو بذاته فى تحيرّ طويل! قال الله: لا تعـتذروا عندى الآن، وقد صـح عندكم الآن أنه سبق أن خوفتكم هـذا العذاب. فما أنا براحمـكم، ولست بذى ظلم، يوم نقول للنار المحرقة البعيدة القاع هل تحتاجين إلى زيادة؟ وتقول: ليس بى متسع لمزيد! أو تقول: زدنى، فأزيدها حتى تقول: قط قط قد امتلأت.

ما ترشد إليه الآيات:

١- تخويف الكفار من هذا الموقف الخطير.

٢- تبرؤ قرين الشر من قرينه.

٣- سب الشيطان لقرينه.

٤- لات ساعة مندم.

٥- نفى الظلم عن الله عز وجل.

٦- لابد من امتلاء جهنم.

****

قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ
(٣٢) مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ (٣٣) ادْخُلُوهَا
بِسَلَامٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥)﴾

المناسبة:

بعد أن بين حال الكفار عند النفخ فى الصور، وما يلاقونه من أهوال عظام يشيب لها الولدان. شرع فى بيان حال المؤمنين، وما يلاقونه من السلام والتكريم. وإنما بدأ بأحوال الكفار؛ لأنَّ المقام للتخويف والتهويل.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿توعدون﴾ بالتاء، وقرئ بالياء أيضًا.

المفردات:

﴿أزلفت﴾ قُرِّبت. ﴿للمتقين﴾ للمتخذين لأنفسهم وقاية باتباع أوامر الله واجتناب نواهيه.

﴿أواب﴾ رجَّاع إلى الله. ﴿حفيظ﴾ صائن لحدود الله. ﴿خشى﴾ خاف. ﴿الرحمن﴾ المتصف بالرحمة الواسعة. ﴿بالغيب﴾ أى: فى الخلوة حيث لا يراه أحد، أو خافه ولم يره. ﴿منيب﴾ مقبل على طاعة الله. ﴿بسلام﴾ أى: مسلمين أو مسلمًا عليكم من الله وملائكته. أو سالمين من العذاب. ﴿الخلود﴾ الدوام فى الجنة. ﴿يشاءون﴾ يريدون ويطلبون. ﴿مزيد﴾ زيادة. قال أنس وجابر: هى النظر إلى وجه الله الكريم.

التراكيب:

قوله ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ عطف على ﴿نفخ﴾. وقوله ﴿غير بعيد﴾ صفة

لموصوف محذوف أى: إزلافًا غير بعيد، وإنما جاء بقوله ﴿غير بعيد﴾ للتأكيد من باب قولهم «هو قريب غير بعيد، وعزيز غير ذليل». والإشارة بقوله ﴿هذا﴾ إلى نعيم الجنة. وقوله ﴿ما توعدون﴾ بالتاء على الالتفات إلى الخطاب؛ لكمال العناية بهم. وقوله ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ بدل من قوله ﴿للمتقين﴾ بإعادة الجار، وعليه فقوله: ﴿هذا ما توعدون﴾ اعتراض. ﴿ومَن﴾ فى قوله: ﴿مَنْ خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب﴾ بدل من كل، بعد اعتبار كون كل بدلاً من المتقين. قالوا: ولا يصح أن يكون بدلاً من المتقين؛ لأن تكرر البدل مع كون المبدل منه واحدًا لا يجوز. ويصح أن يكون ﴿مَن﴾ خبرًا لمبتدأ محذوف أى: «هم من خشى الرحمن» أو مبتدأ خبره ﴿ادخلوها بسلام﴾ بتأويل يقال لهم، والجمع باعتبار معنى من. وقوله ﴿بالغيب﴾ حال من المفعول أى: خشيه، وهو غائب عن بصره ولم يره. ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل أى: خشى الرحمن فى خلوته والتعرض لعنوان الرحمانية للثناء على الخاشى حيث علم أنه رحمن ومع هذا لا يصده ذلك عن خشيته تعالى. وإنما وصف القلب بالإنابة؛ لأنه العمدة فى اعتبار الرجوع إلى الله تعالى. وقوله ﴿بسلام﴾ حال من فاعل ﴿ادخلوها﴾. والإشارة فى قوله ﴿ذلك يوم الخلود﴾ إلى الزمان المفهوم من ﴿ادخلوها﴾ فإن الفعل كما يدل على الحدث يدل على الزمن أى يوم الدخول المقرون بالسلام، وقيل: الكلام على حذف مضاف أى: وقت ذلك يوم الخلود. وهذا معادل لقوله فى الكفار: ﴿ذلك يوم الوعيد﴾ فيما تقدم. وقوله: ﴿لهم ما يشاءون فيها﴾ ﴿لهم﴾ خبر مقدم، و﴿ما﴾: اسم موصول مبتدأ مؤخر، و﴿يشاءون﴾ صلته، والعائد محذوف وفيها متعلق بيشاءون. وقيل: بمحذوف حال من الموصول أو من عائده.

المعنى الإجمالى:

وقربت الجنة للمتخذين لأنفسهم وقاية من عذاب الله باتباع أوامره

سبحانه واجتناب نواهيه. . وأدنيت لهم إدناء غير بعيد. هذا الذى يعد لكم، وقد سبق به الوعد من أنبياء الله وفى كتبه . . لكل رجاع إلى طاعة الله تعالى صائن لحدود الله، من خاف من واسع الرحمة ولم يره، أو خاف منه فى خلوته وأتى إلى الله فى القيامة بقلب مقبل على الله. ادخلوا الجنة مُسلَّمًا عليكم من الله تعالى وملائكته أو يحيى بعضكم بعضًا أو سالمين من العذاب. يوم الدخول المقرون بالسلام هو يوم الإقامة الدائمة الأبدية بجنات عدن. لهؤلاء السعداء ما يطلبون فى الجنة.

وعندنا زيادة فوق ما يطلبون، لا تخطر بالبال، ولا تندرج تحت مشيئتهم، من معالى الكرامات، التى: لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

ما ترشد إليه الآيات:

١- تحقيق وعد الله لعباده الصالحين.

٢- تكريم المتقين وتأمينهم عند فزع الناس.

٣- قدرة الله على إدناء الأماكن المحبوبة للمحبين.

٤- العبرة برجوع القلب.

٥- يلقى المؤمن عند دخول الجنة تحيةً وسلامًا.

٦- يعطى المؤمنون فيها ما يطلبون وفوق ما يطلبون.

****

قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

المناسبة:

لما ذكر فى أوائل السورة أن لقريش سلفًا فى التكذيب بالبعث من الأمم السابقة، وأنه أهلك أممًا معروفة بسبب هذا التكذيب. ذكر هنا أنه أهلك قرونًا كثيرة جدًا يعنى بسبب هذا التكذيب تأكيدًا لشأن البعث، وزيادة فى تقريره.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿فنقَّبوا﴾ بفتح القاف المشددة، وقرئ ﴿فنقِّبوا﴾ بكسر القاف مشددة على الأمر. وقرئ ﴿فَنَقِبوا﴾ بكسر القاف خفيفة. وقرأ الجمهور ﴿أَلْقَى السمع﴾ ببناء الفعل للمعلوم ونصب السمع، وقرئ ﴿أُلقِىَ السمعُ﴾ ببناء الفعل للمجهول ورفع السمع. وقرأ الجمهور ﴿لُغوب﴾ بضم اللام. وقرئ بفتحها.

المفردات:

﴿بطشًا﴾ البطش: الأخذ الشديد فى كل شىء وقوة البأس، والتسلط.

﴿نقَّبوا﴾ على قراءة الجمهور أى: طافوا ومنه قول امرئ القيس:

وَقَدْ نَقَّبْتُ فِى الآفَاقِ حَتَّى ... رَضِيتُ مِنَ الغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ

ويُروَى: وقد طَوَّفتُ. ومنه أيضًا قول الحارث بن خلده:

نَقَّبُوا فِى البِلَادِ مِنْ حَذَرِ المَوْ ... تِ وَجَالُوا فِى الأَرْضِ كُلَّ مَجَالِ

والنقب: الطريق فى الجبل، وكذا النقاب والمنقب، والمناقب طرق إلى اليمامة

واليمن وغيرها، واسم طريق الطائف من مكة: ﴿ونقِبوا﴾ بكسر القاف خفيفة أى: دميت أقدامهم، وحفيت إبلهم من السير فى البلاد. ﴿محيص﴾ مهرب ومحيد. ﴿لذكرى﴾ أى: لتذكرة وعظة. ﴿ألقى﴾ أصغى. ﴿شهيد﴾ من الشهود وهو الحضور أى: هو حاضر بفطنته. ﴿مسنا﴾ أصابنا. ﴿لغوب﴾ تعب وإعياء.

التراكيب:

قوله: ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ الواو استئنافية. وكم: خبرية بمعنى كثيرًا. وهى منصوبة بأهلكنا، وقدمت؛ لأن الخبرية تجرى مجرى الاستفهامية فى التصدير. و﴿من قرن﴾ تمييز لها. وقوله: ﴿هم أشد﴾ يجوز أن يكون صفة ﴿لكم﴾، ويجوز أن يكون صفة لتمييزها. و﴿بطشًا﴾ تمييز لأشد. وقوله ﴿فنقبوا﴾ الفاء للسببية، فالتنقيب تسبب عن شدة بطشهم فهى التى أقدرتهم على التنقيب. والظاهر أن الضمير فى نقبوا يعود على كم ويجوز أن يعود على قريش، ويؤيده قراءة ﴿فنقبوا﴾ على الأمر.

وقوله: ﴿هل من محيص﴾ ﴿هل﴾ حرف استفهام والمراد من الاستفهام النفى والتنبيه للغافل الذاهل والتقريع للمعاند الجاهل و﴿مِنْ﴾ زائدة لاستغراق النفى. و﴿محيص﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: للهالكين، والجملة: إما على إضمار قول هو حال من واو نقبوا أى: فنقبوا فى البلاد قائلين هل من محيص؟ أو هو كلام مستأنف وارد لتحقيق إهلاكهم. وعلى هذا فهو من كلام الله تعالى. والإشارة فى قوله ﴿إن فى ذلك﴾ إلى المذكور من إهلاك تلك القرون، أو إلى ما ذكر من أول هذه السورة إلى هنا. وقوله ﴿لمن كان له قلب﴾ أى: حى سليم، فليس المراد من القلب هنا مجرد قطعة اللحم الصنوبرية الشكل؛ فإنها موجودة فى الحيوانات والكفار، بل المراد اللطيفة الربانية التى بها تميز الحق من الباطل. والانتفاع بالآيات. وقوله ﴿أو ألقى السمع﴾ ﴿أو﴾ بمعنى الواو. فإلقاء السمع لا يجدى بدون سلامة القلب. وأل فى ﴿السمع﴾ عوض عن المضاف إليه، أى: ألقى سمعه. وقوله ﴿وما مسنا

من لغوب﴾ يحتمل أن تكون الجملة حالية، ويحتمل أن تكون استئنافًا. واللُّغوب بالضم مصدر قياسى، وبالفتح مصدر سماعى، وهما بمعنى واحد. ولُغوب فاعل مرفوع بضمة مقدرة منعًا من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

المعنى الإجمالى:

ولقد دمرنا كثيرًا من القرون قبل قريش هم أكثر من قريش عددًا وأقوى أجسامًا فطافوا فى البلاد، ودوخوا العباد، أو فطُوفُوا فى البلاد لتقفوا على آثارهم، ولتروا ما حل بهم، هل استطاعوا فرارًا من عذاب الله؟ إن فى تدمير هؤلاء المكذبين بالبعث لتذكرة وعظة لمن كان له قلب يفهم، وأصغى لما يلقى إليه، وكان حاضرًا بذهنه وفطنته.

ولقد أنشأنا السموات وما فيها من كواكب وأفلاك وشمس وقمر وبروج، والأرض وما فيها من جبال وأصول أقوات وغير ذلك فى ستة أيام بقدر أيامكم وما أصابنا من تعب ولا إعياء.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تهديد منكرى البعث.

٢ - فى إهلاك المكذبين بالبعث دليل عليه.

٣ - لا ينتفع بالأدلة إلا من سلم قلبه وأصغى أذنه وحضر بفطنته.

٤ - لم يعجز الحق تبارك وتعالى عن إيجاد السموات والأرض فلا يعجزه البعث.

******

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ
وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ
(٤١) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا
نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ
عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ
وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)﴾

المناسبة:

لما ذكر سبحانه الأدلة التى تنطق بقدرة الله تعالى على البعث، وهدد قريشًا الذين يؤذون رسول الله ﷺ، أمر النبى ﷺ بالصبر على أذاهم.

القراءة:

قرئ ﴿أدْبَار﴾ بفتح الهمزة، وقرئ بكسرها. وقرأ الجمهور ﴿ينادِ﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفًا.

وقرأ ابن كثير ﴿ينادى﴾ بإثبات الياء وقفًا. وقرأ الجمهور ﴿المناد﴾ بحذف الياء وصلاً ووقفًا . . وقرأ ابن كثير بإثبات الياء وصلاً ووقفًا. وقرأ الجمهور ﴿تَشَقق﴾ بفتح التاء وتخفيف الشين، وقرئ بفتحها وتشديد الشين، وقرئ ﴿تُشقق﴾ بضم التاء.

المفردات:

﴿سبح﴾ أى: برِّئ ربَّك من كل سوء، وسارع إلى طاعته، ونزهه تعالى عن وقوع الخلف فى أخباره التى من جملتها البعث. وقيل: المراد بالتسبيح هنا الصلاة، والتسبيح يطلق على الصلاة أيضًا. قالوا: ومنه قوله تعالى ﴿كان من المسبحين﴾ قال قتادة: فمعنى سبح بحمد ربك أى: صل. ﴿قبل طلوع

الشمس﴾ يعنى صلاة الصبح. ﴿وقبل الغروب﴾ يعنى صلاة العصر. وقال ابن عباس: قبل الغروب: الظهر والعصر، ومن الليل صلاة العشاءين. ﴿أدبار﴾ بفتح الهمزة جمع دبر. والمراد بالسجود: الصلاة فدبر الصلاة أى: عقبها، وفى الصحيح عن أبى هريرة مرفوعًا «من سبح دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر ثلاثًا وثلاثين فذلك تسعة وتسعون وتمام المائة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير. غفرت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر».

وقراءة ﴿إِدبار السجود﴾ بكسر الهمزة على أنه مصدر من: أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. وقد قام هذا المصدر مقام ظرف الزمان كقولهم: آتيك خفوق النجم، والمعنى: ووقت إدبار الصلاة أى: انقضائها.

﴿المناد﴾ المصوت بالحشر وهو إسرافيل. ﴿الصيحة﴾ النفخة الثانية. ﴿بالحق﴾ بالبعث. ﴿الخروج﴾ البعث من القبور. ﴿المصير﴾ المرجع ﴿تشقق﴾ تنفلق. ﴿حشر﴾ بعث، وجمع، وسَوْق. ﴿يسير﴾ هين سهل. ﴿بجبار﴾ أى: بمتسلط تقهرهم على الإيمان، وتفعل بهم ما تريد. ﴿وعيد﴾ عقابى.

التراكيب:

﴿فاصبر على ما يقولون﴾ الفاء تفريعية، والخطاب للنبى ﷺ، وما: مصدرية أو موصولة، والعائد محذوف والضمير المرفوع فى «يقولون» لقريش. والباء فى قوله ﴿وسبح بحمد ربك﴾ للملابسة وقوله: ﴿واستمع يوم يناد المناد من مكان قريب﴾ إن كان استمع على بابه، وأنه بمعنى الإصغاء والإنصات فمفعوله محذوف يجوز أن يكون تقديره: واستمع ما أقول لك يعنى فى شأن البعث، وعليه فقوله ﴿يوم يناد المناد﴾ كلام مستأنف، يوم: حينئذ منصوب بـ «يخرجون» مُقَدَّرًا، وقد دل عليه قوله ﴿ذلك يوم الخروج﴾ أو تقديره: يعلمون عاقبة تكذيبهم. ويجوز أن يكون مفعول استمع تقديره: نداء المنادى أو نداء الكافر بالويل والثبور. وعلى هذا يكون يوم يناد ظرفًا لاستمع أى: استمع ذلك فى يوم. وقيل: إن استمع بمعنى انتظر، وعليه يكون ﴿يوم يناد المناد﴾ مفعولاً به

أى: انتظر ذلك اليوم، ووجه حذف الياء من يُنَـادِ المنادِ اتِّبَاعِ الرَّسْمِ، ومن أثبتها فلأنه الأصل. وإنما وصف المكان بالقرب؛ لبيان أنه يسـمعه جميع الخلق. قيل: يسمعون الصوت من تحت أقدامهم. وقـوله ﴿يوم يسمعون الصيحة بالحق﴾ يوم بدل من يوم قبله، ومـا بينهما اعـتراض. وقيل: منصـوب بيخرجون مـقدرًا. وضمـير يسـمعـون للخلق. والباء فى قـوله ﴿بالحق﴾ للتعـدية إن قلنا إن المراد بالحق: البعث، ويجوز أن تكون للملابسة أى: يسمعون الصيحة ملابسين للحق أو ملابسـة للحق. ومرجع الإشارة فى قوله: ﴿ذلك يوم الخـروج﴾ ليوم النداء والسمـاع وقوله: ﴿يوم تشـقق الأرض عنهم سراعًـا﴾ يوم منصوب قـيل: على البدل من يوم يسمعون، وقيل: منصوب بالمصدر وهو الخروج. وانتصب سراعًا على الحال من الضمـير فى عنهم، والعامل تشقق، وقيل: حـال من مقدر أى: فيخرجـون مسرعين. ويجوز أن يكون هذا المقدر عـاملاً فى يوم تشقق. وقوله ﴿ذلك حشر علينا يسير﴾ ﴿ذلك﴾ مبتدأ و﴿حشـر﴾ خبره و﴿يسير﴾ صفة حشر و﴿علينا﴾ متعلق بيـسير، وقدم لإفادة تخصيص اليـسر به تعالى، ولا يضر فى مثل هذا الفصل بين الموصـوف وصفته؛ لأن الفاصل معمـول الصفة. والإشارة إلى الإحياء بعـد الفناء، والجمع للعرض والحـساب المفهوم من السـياق. وقوله ﴿نحن أعلم بما يقولون﴾ أى: مـن نفى البعث والتكذيب بالآيات، وفيـه تهديد شديد، ووعيـد أكيد لكفار قريش، كـما أن فيه تسليـة للنبى ﷺ: وقوله ﴿وما أنتَ عليهم بجبار﴾ جبـار صيغة مبالغة من جبر الثـلاثى فإن فَعَّالاً إنما يُبْنَى من الثلاثى، وكثير من أهل الحجـاز، وبعض بنى تميم يقولون: جبره جبرًا من باب قتل بمعنى: قـهره على الأمر قهرًا، ولغـة عامة العرب سوى مـن ذكرنا يقولون أجبره على كـذا أى: حمله عليه قهـرًا فهو مجـبر. وهما لغتان جـيدتان بمعنى واحد.

قال الفراء:

قد سمعـت العرب تقول: جبرته على الأمر وأجـبرته. قالوا ولم يجئ من أفعل على فـعال سـوى دراك. وقوله ﴿فـذكر بالقرآن من يخاف وعـيد﴾ إنما قصـر التذكـير على من يخـاف الوعيد؛ لأنـه هو الذى ينتفع به، وقـد ختم السورة بذكر القرآن الذى بدأها به كما هو الملاحظ فى السور المبدوءة بالفواتح

المباركة. فما أجمل المطلع، وما أحسن الاختتام.

المعنى الإجمالي:

فلا تجزع بسبب الذى يصادرونك به من القول السيئ، وبرئ ربك من كل نقص حال كونك تثنى عليه بما هو أهله، طرفى النهار وزُلَفًا من الليل، وعقيب الصلوات، واصغ لنداء المنادى يوم يصوت الملك من مكان ليس ببعيد عنهم، يقول: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة واللحوم المتمزقة، والشعور المتفرقة إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء، فيقوم الناس لرب العالمين. يوم يقرع أسماعهم صوت المنادى بالبعث. ذلك يوم النداء والسماع يوم القيام من القبور.

إنَّا - لاسوانا - نهب الحياة ونسلبها، وإلينا مرجع الخلائق أجمعين يوم تنفلق الأرض عن أجسام الموتى فيخرجون مسرعين. ذلك بعث وسوق وجمع سهل علينا، ولا يستطيعه سوانا.

نحن المسيطرون على العباد، ولست عليهم بمسيطر، وما عليك إلاَّ البلاغ، فعظ بهذا الذكر الحكيم أهل خشيتنا فهم المنتفعون بالذكر.

ما ترشد إليه الآيات:

١- الحض على الصبر.

٢- طمأنينة القلب بذكر الله.

٣- الإكثار من ذكر الله.

٤- وقوع البعث لا محالة.

٥- سهولة البعث على الله عز وجل.

٦- تهديد الكفار ووعيدهم.

٧- تسلية النبى ﷺ.

٨- لا ينتفع بالذكر إلا من يخاف وعيد الله.

*****

سورة النجم

ترتيبها ٥٣ — آياتها ٦٢

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١﴾

المناسبة:

لما حكى عن الكفار فى السورة السابقة أنهم يقولون تقوَّله، ونسبوه إلى الشعر والكهانة والجنون، وختم السورة بذكر النجوم. افتتح هذه السورة بالنجم إذا هوى، وأقسم إن محمداً ما ضل وما غوى.

سبب النزول:

كان النبى ﷺ لا يعلن القرآن بمكة فى أول أمره، وكان يشاع ما يتلى منه، وكان المشركون يقولون: إن محمداً يختلق القرآن الذى يذكره لأصحابه، فنزلت هذه السورة، وأعلنها رسول الله ﷺ بمكة، وقرأها على الناس، فلما انتهى منها سجد وسجد مَنْ معه منَ الكفار غير شيخ أخذ كفًا من حصى وسجد عليه.. قال عبد الله بن مسعود: فلقد رأيته قتل كافراً يعنى ببدر. وقد أشيع عقيب تلاوتها وسجود الكفار أن النبى ﷺ يمدح الأصنام، والواقع وصريح الآيات يكذب هذه الإشاعة.

القراءة:

قرأ الجمهور: ﴿ما كذَب﴾ بتخفيف الذال، وقرئ ﴿ما كذَّب﴾ بتشديد الذال.

المفردات:

﴿النجم﴾ قيل: المراد به الجنس أى النجوم. قال الشاعر:

فَبَاتَتْ تَعدُّ النَّجْمَ فِى مُسْتَجَرِّهِ سَرِيعٌ بِأَيْدِى الآكِلِينَ جُمُودُها

وقيل: هو الثريا وهو عَلَم عليها بالغلبة، ولا تقول العرب النجم مطلقاً إلا للثريا، ومنه **قول الشاعر**:

طَلَعَ النَّجْمُ عِشَاءَ فَابْتَغَى الرَّاعِى كِسَاءَ
طَلَعَ النَّجْمُ غَدِيُهْ فَابْتَغَى الرَّاعِى كَسِيَّهْ

وقيل النجم: الزهرَة وكانت تعبد. وقيل: الشعرى كما قال فى أواخر السورة ﴿وأنه هو رب الشعرى﴾. وقيل غير ذلك. وأصل النجم: الطلوع، وكل طالع نجم، يقال: نَجَمَ: السن، والنبت، والقرن إذا طلع. ﴿هوى﴾ أى سقط للغروب. والهوَى بالفتح وبالضم، والهويان: السقوط من علو إلى سفلٍ.

وقيل: الهوِى بالفتح: للإصعاد، والهوى بالضم: للانحدار. ﴿ضل﴾ حاد عن طريق الحق. ﴿غوى﴾ جهل ولابس الباطل. ﴿ينطق﴾ يتكلم. ﴿الهوى﴾ ميل النفس إلى ما تشتهى. ﴿إنْ﴾ بمعنى ما. ﴿هو﴾ الذى ينطق به أو القرآن. ﴿وحى﴾ أصل الوحى الإشارة السريعة يقال: أمر وحى أى سريع، ثم اختص فى عرف اللغة بالأمر الإلهى الملقى إلى الأنبياء. ﴿يوحى﴾ أى: يلقى من الله عز وجل. ﴿شديد القوى﴾ يعنى: جبريل، وقال الحسن: هو الله تعالى: ﴿ذو مرة﴾ المرة: القوة من أمررت الحبل إذا أحكمت فتله، ومنه قوله -عليه السلام- «لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مرة سوى»: وتطلق على العقل والآصالة والإحكام، وقوة الخلق، وشدته. ﴿فاستوى﴾ فتعلم واستقام، أو فارتفع، أو فاستقر.

﴿الأفق﴾ ناحية السماء. وجمعه آفاق. وقال قتادة: هو الموضع الذى تأتى منه الشمس. ويقال: أفق يأفق كفرح يفرح إذا بلغ النهاية فى العلم أو فى الكرم. و﴿الأعلى﴾ الرفيع. ﴿دنا﴾ قرب. ﴿فتدلى﴾ زاد فى القرب. ﴿قاب﴾ قدر. ﴿قوسين﴾ تثنية قوس وقيل: هو الذراع على لغة لأهل الحجاز، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: القوس هنا ذراع تقاس به الأطوال. وقيل غير ذلك. ﴿أدنى﴾ أقرب. ﴿فأوحى﴾ ألقى من الأمر الإلهى. ﴿ما كذَب﴾ بالتخفيف أى: ما اختلق، وبالتشديد «ما أنكر، ولا جحد ولا رد.».

التراكيب:

قوله ﴿إذا هوى﴾ العامل فى إذا فعل القسم، فإنه بمعنى مطلق الوقت، منسلخ من معنى الاستقبال. كما فى قولك: آتيك إذا احمر البسر. فلا يعترض بأن فعل القسم حال، وإذا لما يستقبل من الزمان، فلا يتلاقيان. وقوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣)﴾ هذا جواب القسم، وفى الإقسام بالنجوم على ما ذكر فن من البلاغة بديع، فإنَّ من شأن النجم أن يهتدى به السارى، وكذلك محمد ﷺ من رغب عن سبيله ضل، كما أن القرآن علم فى الهداية إلى مناهج الدين، ومسالك الحق، وإنما عبر بالصحبة؛ لأنها - مع كونها أدل على القصد - مرغبة لهم فيه، ومقبلة بهم إليه، ومشنعة عليهم تكذيبهم به، وهم يعرفون طهارة شمائله. والضمير المنصوب فى ﴿علمه﴾ قيل: عائد على الرسول ﷺ فالمفعول الثانى محذوف أى: علمه الوحى. وقيل: عائد على القرآن فالمفعول الأول محذوف أى: علمه الرسول. وقوله ﴿فاستوى﴾ يجوز أن يرجع الضمير فيه إلى محمد ﷺ كأنه قيل علّمه جبريل - عليه السلام- فتعلم واستقام، ذكره الماوردى. وقيل: الضمير فيه راجع إلى جبريل والفاء للعطف على علمه والتقدير: علمه جبريل فارتفع إلى مكانه فى السماء أى بعد أن علمه، وإلى هذا ذهب سعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، أو فقام وظهر فى صورته التى خلق عليها. وقيل: الضمير فيه راجع إلى الله عز وجل أى «فاستقر على العرش»، وهذا قول الحسن. وقوله ﴿وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾ الضمير فيه راجع إلى جبريل -عليه السلام- والواو للحال، أى علمه صاحب هذه الصفات حال كونه بالأفق الأعلى. وهذا بيان لحال من أحوال التعليم.

وقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ﴾ بيان لحال أخرى من أحوال التعليم. وقوله ﴿أوأدنى﴾ ﴿أو﴾ فيه بمعنى بل التى للإضراب الانتقالى. وقوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ الظاهر أن فاعل أوحى هو جبريل -عليه السلام- والضمير فى ﴿عبده﴾ لله أى فأوحى جبريل - عليه السلام- إلى عبد الله. وهذا قول الحسن، وإضماره قبل الذكر لغاية ظهوره.

وقيل: فأوحى الله إلى عبده جبريل -عليه السلام- ما أوحاه إلى محمد ﷺ. وقيل: فأوحى الله إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى.

وما فى قوله: ﴿ما أوحى﴾ موصولة فى محل نصب مفعول به لقوله فأوحى، والعائد محذوف والتقدير: ما أوحاه. وإنما عبر بما؛ لقصد الإبهام على جهة التعظيم والتفخيم. و﴿ما﴾ فى قوله ﴿ما رأى﴾ مفعول به وهى موصولة، والعائد محذوف، وفاعل رأى ضمير النبى ﷺ، وهذا على قراءة التشديد فى ﴿ما كذَّب﴾. وأما على قراءة التخفيف ﴿ما كذَب﴾ فقيل: هى كذلك: مفعول به، وكَذَب يتعدى بنفسه. وقيل: هو منصوب على نزع الخافض، أى: ما كذب فيما رآه. والمرئى قيل: جبريل -عليه السلام- وإلى هذا ذهبت عائشة وابن مسعود وقتادة. وقيل: المرئى الله عز وجل، وهو قول ابن عباس. وممن أثبت هذه الرؤية لنبينا محمد ﷺ الإمام أحمد فروى الخلال فى كتاب السنة عن المروزى؛ قلت لأحمد: إنهم يقولون: إن عائشة قالت: «مَنْ زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله!» فبأى شىء يدفع قولها؟ قال: بقول النبى ﷺ رأيت ربى - قول النبى ﷺ أكبر من قولها. وقد أنكر صاحب الهدى على مَنْ زعم أن أحمد قال: رأى ربه بعينى رأسه. قال: وإنما قال مرة: رأى محمد ربه، وقال مرة: بفؤاده.

المعنى الإجمالى:

أقسم بالنجوم وقت سقوطها للغروب. ما حاد محمد الذى صحبتموه وخبرتم حاله عن طريق الحق، وما لابس الباطل، وما يتكلم بما تهواه نفسه وتشتهيه دون وحى من ربه، ما الذى يأتيكم به إلا أمر إلهى، ملقى إليه، فهَّمه إياه جبريل الموصوف بشدة قوته، وأصالة عقله، فتعلم واستحكم علمه، وقد علمه جبريل حال كونه بناحية السماء، ثم قرب منه فازداد فى القرب، فصار فى قربه قدر ذراعين بل أقرب. فألقى إلى محمد ﷺ ما ألقاه. ما افترى قلب محمد الرؤية ولا اختلقها، وما ردها ولا جحدها.

ما ترشد إليه الآيات:

١- التفكر فى النجوم وقت سقوطها.

٢- تصديق محمد ﷺ.

٣- لا يأتى محمد بشىء من عنده نفسه.

٤- شدة قوة جبريل-عليه السلام-.

٥- تنوع حالة وحيه للنبى ﷺ.

٦- تعظيم الموحى.

قال تعالى: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

المناسبة:

لما ذكر أحواله الداعية إلى عدم المماراة، أنكر عليهم ما يحدث منهم من المماراة.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿أفتمارُونَه﴾، وقرئ ﴿أفتَمْرونَه﴾ بفتح التاء وسكون الميم.

المفردات:

﴿أفتمارونه﴾ أفتجادلونه وتغلبونه. من المراء وهو الملاحاة والمجادلة، وأصل اشتقاقه: من مَرى الناقة يَمْريها إذا مسح ضرعها للدر. كأن كلاً من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. ﴿أفتمرونه﴾ أى أفتجحدونه من قولهم: مَراه حقه إذا جحده. ﴿نزلة﴾ مرة: من النزول. ﴿سدرة﴾ شجرة نَبق فى السماء السابعة ثمرها كقلال هجر وأوراقها كآذان الفيلة. ﴿المنتهى﴾ موضع الانتهاء أو الانتهاء كأنها فى منتهى الجنة وآخرها. أو إليها ينتهى علم من دونها أو تنتهى إليها أرواح الشهداء.. وقيل غير ذلك. ﴿المأوى﴾ التى يأوى إليها المؤمنون وينزلونها ويسكونها فلا يمسهم فيها نصب، وما هم منها بمخرجين. ﴿يغشى﴾ من الغشيان بمعنى: التغطية والستر ومنه: الغواشى، أو بمعنى الإتيان، من قولهم: فلان يغشانى كل حين أى يأتينى وينتابنى ﴿زاغ﴾ مال وعدل، يعنى: عما رآه. ﴿ما طغى﴾ ما تجاوز ماراه فما يخبر به هو الحق. ﴿رأى﴾ أبصر وعاين. ﴿آيات﴾ دلائل وبراهين وعجائب. ﴿الكبرى﴾ العظمى.

التراكيب:

قوله ﴿أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى المقصود منه التوبيخ. الفاء للعطف على محذوف تقديره: أتكذبونه فتجادلونه. كان من حق الفعل أن يتعدى بفى كما يقال: جادلته فى كذا وماريته فيه. لكنه لما ضُمِّنَ معنى الغلبة عُدِّى تعديتها. وأما الفعل على قراءة ﴿أفتمرونه﴾ فكان من حقه أن يتعدى بنفسه، ولكنه لتضمنه معنى الغلبة أيضاً عدى بعلى كذلك. و﴿ما﴾ فى ﴿ما يرى﴾ موصولة والعائد محذوف، أو مصدرية. وإنما جاء يرى بصيغة المضارع - وإن كانت الرؤية قد مضت - إشارة إلى ما يمكن حدوثه بعد، ولحكاية الحالة الماضية استحضاراً لصورتها البديعة فى ذهن المخاطبين.

وقوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ اللام فيه موطئة للقسم، و﴿نزلة﴾ قيل: منصوب على الظرفية نصب الظرف الذى هو مرة؛ لأن الفعلة اسم للمرة من الفعل فكانت فى حكمها، والتقدير: ولقد رآه مرةً أخرى. وهذا مذهب الفراء. وقيل: منصوب على المصدر، والتقدير: ولقد رآه نازلاً نزلة أخرى. والضمير المنصوب فى رآه عائد على جبريل-عليه السلام- أى: رآه محمد ﷺ مرة أخرى أو نازلاً نزلة أخرى فى صورة نفسه. وقيل: راجع إلى الله عز وجل كما هو مذهب ابن عباس ويقول: إن محمداً رأى ربه مرتين. وعند فى قوله ﴿عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾ ظرفٌ لرآه أو حال من الفاعل أو المفعول أو منهما. وإضافة سدرة إلى المنتهى إما من إضافة الشىء إلى مكانه، كأشجار البستان، أو من إضافة المحل إلى الحال مثل: كتاب الفقه. وقوله ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ﴾ جملة حالية والضمير راجع إلى السدرة. قيل: ويحتمل عند النزلة. وقوله ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ إذ: ظرف زمان لرآه وما موصولة فى محل رفع فاعل. وإنما عبر بالموصول لما فى الإبهام من التفخيم والتعظيم. كما أخر الفاعل للتشويق. وقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ مستأنف؛ لتحقيق الأمر ونفى الريب عنه

ﷺ، وقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ اللام واقعة فى جواب قسم محذوف. و﴿الكبرى﴾ إما مفعول به لرأى، و﴿من آيات ربه﴾ حال مقدمة. والتقدير: لقد رأي الآيات الكبرى حال كونها من جملة آيات ربه، وإما صفة لآيات ربه وعليه فقوله: ﴿مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ هو المفعول به ومِنْ تبعيضية: أى: رأى بعض آيات ربه الكبرى. ومثل هذا الجمع يوصف بوصف المؤنثة الواحدة. وقد حسَّنه هنا كونها فاصلة، كما فى قوله: ﴿لنريك من آياتنا الكبرى﴾.

المعنى الإجمالى:

أتكذبونه فتجادلونه وتغلبونه على الذى أبصره وعاينه، ووالله لقد أبصر وعاين مَنْ أوحى إليه مرة أخرى لدى شجرة النبق التى ينتهى إليها علم من دونها أو التى تنتهى إليها أرواح الشهداء. لدى هذه الشجرة أو هذه النزلة دار النعيم التى يأوى إليها المتقون، فيأمنون فيها، ويسعدون بها، ولا يخرجون منها، لقد رآه وقت أن غطى الشجرة ما غطاها أو انتابها ما انتابها من أمر الله عز وجل. ما مال ولا عدل بصر محمد عما رآه، ولا تجاوزه إلى غيره، فما يخبر به هو الحق الذى أبصره وعاينه.

لقد أبصر وعاين بعض عجائب ربه العظمى.

ما ترشد إليه الآيات:

١- توبيخ المشركين على المراء الباطل.

٢- ما يخبر به محمد ﷺ هو العلم.

٣- رأى محمد ﷺ جنة المأوى.

٤- شأن هذه السدرة عظيم.

٥- رؤية النبى ﷺ بعض العجائب الكبرى.

******

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ اللَّٰتَ وَالْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ
الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (٢٠) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ
ضِيزَىٰ (٢٢) إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ
وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) فَلِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ (٢٥)﴾

المناسبة:

لما قرر الرسالة، وذكر عظمة الله وقدرته الباهرة التى تقضى بالتوحيد، وتمنع عن الشرك بالله تعالى، وقفهم على حقارة معبوداتهم.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿اللات﴾ بتخفيف التاء، وقرئ بتشديدها. وقرأ الجمهور ﴿مناة﴾، وقرئ ﴿مناءة﴾.. بالمد والهمزة. وقرأ الجمهور ﴿ضِيزى﴾ بكسر الضاد من غير همز، وقرئ ﴿ضئزى﴾ بالهمز. كما قرئ ﴿ضيزى﴾ بفتح الضاد وسكون الياء. وقرأ الجمهور ﴿إِنْ يتبعون﴾ بالياء. وقرئ ﴿إِنْ تتبعون﴾ بالتاء.

المفردات:

﴿اللات﴾ صنم بالطائف أو بنخلة عند سوق عكاظ. قال ابن عباس: كان رجلاً يلت السويق للحاج فمات فعكفوا على قبره. وقد كان لثقيف. وفيه يقول الشاعر:

وَفَـرَّتْ ثَـقِـيـفُ إِلَى لاتِـهَـا ... بِمُنْقَلِبِ الخَـائِبِ الخَـاسِـرِ

قيل أصلها: مِن لتَّ السويق. وهذا ظاهر على قراءة التشديد، ولا مانع منه على قراءة التخفيف أيضاً. وقيل: هى مشتقة من لوى يلوى؛ لأنهم كانوا يلوون أعناقهم إليها، أو يلتوون أى: يعتكفون عليها. وأصلها: لوية فألفها منقلبة عن واو. والتاء فيها زائدة، وقد حذفت لامها.

﴿العُزى﴾ تأنيث الأعزّ يعنى: «الأغلب». وهى صنم لغطفان كانوا يعبدونها وهى سمرة بوادى نخلة فوق ذات عرق، وقد بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد عام الفتح فهدمها وهو يقول:

يَا عزَّ كُفْرَانَك لاَ سُبْحَانَك ... إِنِّى رَأَيْتُ اللهَ قَدْ أَهَانَك

﴿مناة﴾ صنم كانت بالمشلل، وهو موضع جهة البحر من قديد المعروف بين مكة والمدينة، وكانت تعبدها غسان، والأوس والخزرج. وكان من أهلّ لها لم يطُفْ بين الصفا والمروة. وهى على قراءة الجمهور مشتقة من: منى يمنى إذا أراق وصب. لأن دماء النسائك كانت تراق عندها. ووزنها «فعلة». وأما على قراءة المد والهمزة ﴿مناءة﴾ فقيل: مشتقة من النوء؛ لأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها. ووزنها «مفعلة» فألفها منقلبة عن واو، وهمزتها أصلية وميمها زائدة. ﴿ضيزى﴾ جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه. **قال الشاعر:**

ضَازَتْ بَنُو أَسَدٍ بِحُكْمِهِمُ ... إِذْ يَجْعَلُونَ الرَّأْسَ كَالذَّنَبِ

وقيل: عوجاء، وقيل: ناقصة. قال أبو عبيدة: تقول: ضأزته حقه أى: نقصته وأنشد الأخفش.

فَإِن تَنْأَ عَنْهَا تَقْتَضِيكَ وإِنَ تَغِبْ ... فَسَهْمُكَ مَضْئُوزٌ وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ

قيل: أصلها على وزن: حبلى، وأنثى فكسرت فاء الكلمة؛ لتصح الياء وهذا مبنىٌّ على ادعاء سيبويه أنه لا يوجد (فعِلى) بكسر الفاء فى الصفات. وأثبت ثعلب وغيره وجودها فحكى: مشية حيكى بكسر الحال أى: فيها تبختر واختيال. وبعضهم يحكيها مشية حَيَكى كَجَمَزَى. ومَنْ قرأ بالهمز أو بالفتح فهى لغات فى ضيزى كما فى القاموس. ﴿سلطان﴾ برهان. ﴿الظن﴾ الخاطر الشيطانى. ﴿تهوى﴾ تحب. ﴿الهدى﴾ البيان الشافى بالكتاب المُنزَّل والنبى المُرسل. ﴿تمنى﴾ اشتهى. ﴿الأولى﴾ الدنيا.

التراكيب:

قوله ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف يقتضيه السياق، ورأى بصرية، واللات مفعولها. وقيل: علمية ومفعولها الثانى محذوف؛ لدلالة الحال عليه. تقديره: بنات الله أو شركاء الله تعالى. وقال أبو حيان: هو قوله ﴿أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ﴾. ولم يعد ضمير من جملة الاستفهام على اللات والعزى ومناة؛ لأن قوله ﴿وله الأنثى﴾ فى معنى وله هذه الإناث فإنهم كانوا يقولون فى هذه الأصنام هى بنات الله. و«أل» فى اللات والعزى زائدة فإن كانا علمين بالوضع فهى لازمة، وإن كانا علمين بالغلبة وأصلهما وصفان فأل غير لازمة، وهى للمح الصفة. ووصف مناة بالأخرى تهكم بها؛ لأنها بمعنى المتأخرة الوضيعة المقدار. والإشارة فى قوله ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ﴾ إلى القسمة المفهومة من الجملة الاستفهامية. وقوله ﴿إذاً﴾ أى: إذ جعلتم البنات له والبنين لكم، وقوله ﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم﴾ إِنْ بمعنى ما. و﴿هى﴾ عائد على الأصنام المذكورة التى اتخذوها آلهة.

وقوله ﴿سميتموها﴾ صفة لأسماء، والضمير المنصوب فيها للأسماء لا للأصنام يعنى هى مجرد أسماء جعلتموها، لا حقيقة لها فى استحقاق العبادة كما فى قوله ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا﴾[يوسف: ٤٠]، والهاء هى المفعول الثانى، والأول محذوف تقديره: أصناما تعبدونها. وقوله ﴿أنتم﴾ تأكيد للواو لأجل التوصل لعطف ﴿وآباؤكم﴾ عليها. قال ابن مالك:

وَإِنْ عَلَى ضَمِيرِ رَفْعٍ مُتَّصِلْ   عَطَفْتَ فَافْصِلْ بِالضَّمِيرِ الْمُنْفَصِلِ

وقوله: ﴿إِنْ يتبعون﴾ على قراءة الجمهور فيه التفات إلى الغيبة للإيذان بأن تعدد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ﴾ يجوز أن تكون الجملة حالية من فاعل يتبعون. ويجوز أن يكون

اعتراضاً بين قوله ﴿وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾، وقوله ﴿أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ ﴿أم﴾ منقطعة بمعنى «بل» وهمزة الإنكار. والاضراب فيه للانتقال عن اتباعهم التوهم الباطل إلى إنكار ما هو أفحش منه، وهو أن يكون لهم ما يتمنونه من شفاعة آلهتهم. وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ﴾ تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان ما يتمناه حتماً.

المعنى الإجمالى:

ألكم أعين فأبصرتم هذه الأصنام الحقيرة، وإنه لشيء منكر أن تجعلوا لله الإناث، ولكم الذكور مع أنه إذا بُشِرَ أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. هذه قسمة جائرة، ما هذه المذكورات من الأصنام إلا مجرد أسماء جعلتموها أنتم، وهى لاحقيقة لها فى استحقاق العبادة.

ما تنقادون إلا للخاطر الشيطانى وما تشتهيه أنفسكم. ولقد أتاكم من سيدكم ومالككم ومدبر أموركم البيان الشافى بالكتاب المنزل والنبى المرسل، فكيف تتركون داعى الحق، وتنقادون لخاطر الشيطان! بل ننكر أن يكون للإنسان ما يشتهيه؛ لأن أمر الدنيا والآخرة لله عز وجل فهو مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، وبيده الخير.

ما ترشد إليه الآيات:

١- تحقير الأصنام وعابديها.

٢- بيان جور الكفار وسخافة عقولهم.

٣- هذه المعبودات أسماء لا حقيقة لها.

٤- انقياد الكفار للخاطر الشيطانى دون الحق الربانى.

٥- أمر الدنيا والآخرة بيد الله.

******

قال تعالى: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي
شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ (٢٦)
إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ (٢٧)
وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ
ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا (٢٨) فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ
ٱلدُّنۡيَا (٢٩) ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن
سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ (٣٠) ﴾

المناسبة:

بعد أن ذكر أطماعهم وشهواتهم، وهم يطمعون أن تشفع لهم هذه الأصنام، أقنطهم من هذه الشفاعة، ببيان أن الملائكة المقربين لا تُغنى شفاعتهم إلا بعد إذن الله ورضاه لمن يكون أهلاً للشفاعة. فكيف تشفع الأصنام لمن يعبدها؟

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿شفاعتهُمْ﴾، وقرئ (شفاعته) وقرئ (شفاعاتهم).

المفردات:

﴿كم﴾ خبرية للتكثير. ﴿ملك﴾ واحد من الملائكة مأخوذ من المألكَة وهىَ: الرسالة. ومنه قولهم: ألكنى إلى فلان أى: أبلغه عنى. وسمى المَلَك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى. ﴿لا تُغنى﴾ لا تدفع ولا تنفع. ﴿يأذن﴾ أى: يبيح للشافع أن يشفع. ﴿تسمية الأنثى﴾ أى: يقولون إنهم بنات الله. ﴿تولى﴾ أعرض. ﴿ذكرنا﴾ أى: القرآن. ﴿مبلغهم﴾ غايتهم. ﴿ضل﴾ حاد.

التراكيب:

قوله ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ ﴿كم﴾ فى محل رفع على الابتداء، والخبر «لا تُغنى». وأفردت الشفاعة على قراءة الجمهور؛ لأنها مصدر، ولأنه لو شفع جميعهم لواحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئاً. وجمع الضمير فى شفاعتهم مع إفراد الملك باعتبار المعنى أى: وكثير من الملائكة. وقوله ﴿شيئاً﴾ مفعول مطلق أى شيئاً من الإغناء. واللام فى وقوله: ﴿لمن يشاء﴾ بمعنى فى. والواو فى قوله ﴿ويرضى﴾ لمطلق الجمع. وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رضى عن عبده المذنب فإذا رضى عنه أذن للشافع أن يشفع له، وهو سبحانه لا يرضى إلا بالتوحيد. وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ﴾ التعبير بالاسم الموصول؛ لتسجيل كفرهم وللإشارة إلى نوع الخبر، وأنه من نوع القبائح. فإن قيل: زعمهم لشفاعة أصنامهم إيمان منهم بالآخرة؛ قلنا: هم لا يجزمون بالحشر ويقولون إن كان حشر فهم يشفعون. وقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ حال من فاعل يسمون أى: يسمونهم والحال ألا علم لهم بما يقولون أصلاً، وعلم: مبتدأ مؤخر ولهم خبر مقدم. وقوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ الفاء فصيحة. وكان مقتضى الظاهر أن يقول ﴿فأعرض عنهم﴾ ولكنه وضع الموصول موضع الضمير للتوسل به إلى وصفهم بما فى حيز الصلة من الأوصاف القبيحة مع تعليل الحكم بها. وقوله: ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾ قيل: الجملة مقررة مضمون ما قبلها من قصر الإرادة على الحياة الدنيا. والإشارة فيه. قيل: إلى ما هم فيه من التولى وقصر الإرادة على الحياة الدنيا. وقيل: الإشارة إلى جعلهم الملائكة بنات الله. وقيل: إلى الظن أى: غاية ما يعلمون أن يأخذوا بالظن وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ تعليل للأمر بالإعراض ووعيد شديد لهم. وإنما كرر ﴿هو أعلم﴾؛ لزيادة التقرير والإيذان بكمال تباين المعلومين.

المعنى الإجمالى:

وكثير من الملائكة الذين هم عباد مكرمون لا يستطيعون أن يطلبوا أن يخفف العذاب عن أحد إلا إذا رضى الله عمن يشفع فيه، وأذن للشافع فى الشفاعة مع أنه لا يرضى إلا عن أهل التوحيد.

إن هؤلاء الجاحدين للبعث ليصفون الملائكة الذين هم عند الرحمن بصفات الإناث فيقولون هم بنات الله. والحال أنه لا علم لهم بهذا الاسم الذى يطلقونه، فإنهم لم يشهدوا خلقهم، ولم يبصروا أجسامهم.

ما ينقادون إلا للخواطر الشيطانية، وإن الخواطر الشيطانية لا تكون سبيلاً للصدق. وإذا كانوا بهذه المثابة فلا تقتل نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفًا، فإن دأبهم الإعراض، وديدنهم البعد عن مصدر الخير والشرف. وليست لهم أهداف نبيلة، ولا مثل عليا. إنما همهم بطونهم وما يدور حولها.

هذا الذى وصفناهم به هو منتهى علمهم، وغاية معارفهم، وسيجدون عاقبة كفرهم خزيًا ووبالاً.. وستجد عاقبة صبرك نصرًا وعزًّا؛ لأن ربك لا يعزب عنه أحوالهم الخبيثة، ولا يضيع عنده صبرك الجميل.

ما ترشد إليه الآيات:

١- إقناط الكفار من شفاعة أصنامهم.

٢- لا شفاعة إلا فى أهل التوحيد.

٣- لابد للشافع من سبق الإذن.

٤- تسمية الملائكة بنات الله من الرجم بالغيب.

٥- الرمى بالظنون لا يكون علمًا.

٦- الأمر بالصبر عليهم.

٧- الوعيد الشديد لهم.

******

قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى (٣١) ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾

المناسبة:

لما قرر أنه عالم بالضال والمهتدى أردف ذلك ببيان أنه مالك لكل ما فى السموات وما فى الأرض، على سبيل التأكيد للوعيد الشديد.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿ليجزى﴾ بالياء، وكذلك ﴿ويجزى﴾، وقرئ ﴿لنجزى﴾، ﴿ونجزى﴾ بالنون فيهما. وقرأ الجمهور ﴿كبائر الإثم﴾، وقرئ ﴿كبير الإثم﴾.

المفردات:

﴿ليجزى﴾ ليكافئ. ﴿أساءوا﴾ أى ارتكبوا القبائح. ﴿أحسنوا﴾ فعلوا الجميل. ﴿الحسنى﴾ الجنة. ﴿يجتنبون﴾ اجتناب الشيء: تركه والابتعاد عنه كأنه ترك جانبه وناحيته. ﴿كبائر الإثم﴾ كبائر: جمع كبيرة قيل: هى المعصية التى توجب الحد، وقيل: كل ذنب قرن بالوعيد. وقيل: كل ما نص الكتاب على تحريمه. وسميت كبيرة لعظم خطرها وثقل وقعها. وأما من قرأ ﴿كبير الإثم﴾ فقيل: أريد الجنس وقيل: الشرك. ﴿الإثم﴾ الذنب. ﴿الفواحش﴾ جمع فاحشة: وهى ما يشتد قبحه من الذنوب يقال: فحش يفحش فحشًا وفاحشةً. وأفحش إذا جاء بالقبيح من القول أو الفعل. ﴿اللمم﴾ ما قل وصغر، وقال أبو العباس المبرد: أصل اللمم أن يلم بالشيء من غير أن يرتكبه. يقال: ألم

بكذا إذا قاربه، ولم يخالطه. وقال الأزهرى: العرب تستعمل الإلمام فى المقاربة والدنو يقال: ألَمّ يفعل كذا بمعنى «كاد يفعل». **قال جرير:**

بنفسى من تَجَنَيِّه عزيزٌ عليَّ ومَن زيارته لمام

وقال آخر: لقاء أخلاء الصفاء لمام

﴿أنشأكم﴾ خلقكم وأوجدكم. ﴿من الأرض﴾ من التراب والطين. ﴿أجنة﴾ جمع جنين وهو الولد فى البطن، سمى بذلك لاستتاره. والاجتنان: الاستتار. ﴿فلا تزكوا﴾ فلا تمدحوا على سبيل الإعجاب. ﴿اتقى﴾ خاف ربه، وعمل بطاعته فاتخذ لنفسه وقاية من عذابه.

التراكيب:

قوله: ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ تقديم الجار والمجرور؛ لإفادة الحصر، وأنها لله خلقاً وملكاً، لا لغيره أصلاً لا استقلالاً ولا اشتراكاً. والتعبير «بما» التى لغير العاقل للتغليب لكثرة أفراده. وقوله ﴿ليجزى﴾ قيل: اللام متعلقة بما دل عليه معنى الملك فى قوله. ﴿ولله ما فى السموات﴾ إلخ. أى: فيضل ويهدى ليجزى. وعليه فالواو فى قوله ﴿ولله﴾ للاستئناف. وقيل: اللام للصيرورة والعاقبة، لا للتعليل أى: عاقبة أمرهم جميعًا للجزاء بما عملوا. وقيل: اللام متعلقة بما دل عليه ﴿أعلم﴾ كأنه قيل: فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدي ويحفظهما، ليجزى. وعلى هذا فجملة ﴿ولله ما فى السموات﴾ إلخ اعتراضية. وتكرير الفعل يجزى، لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء أو للتنبيه على تباين الجزاءين.

وقوله: ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ** ﴾ الموصول منصوب بدلاً من الذين أحسنوا. وصيغة الاستقبال فى صلته للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره. أو منصوب بإضمار أعنى أو هو مرفوع خبرًا لمبتدأ محذوف أى: هم الذين يجتنبون. وقوله: ﴿والفواحش﴾ من عطف الخاص على العام. والاستثناء فى قوله: ﴿إلا اللمم﴾ منقطع؛ لأنه ليس قبله ما يندرج فيه. وقوله ﴿إن ربك واسع المغفرة﴾ تعليل لاستثناء اللمم وتنبيه على أن

إخراجه عن حكم المؤاخذة ليس لخلوه عن الذنب فى نفسه بل لسعة المغفرة الربانية. وقيل: إنما عقب وعيد المسيئين ووعد المحسنين بهذا لئلا ييئس صاحب الكبيرة من رحمة الله تعالى وقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ استئناف مقرر لشمول علمه وإحاطته سبحانه بأحوال عباده، ووقت إيجادهم من التراب، ووقت استتارهم فى بطون أمهاتهم، وأفعل التفضيل فيه لا مانع أن يكون على بابه. والفاء فى قوله ﴿فلا تزكوا أنفسكم﴾ فصيحة. وقوله ﴿هو أعلم بمن اتقى﴾ استئناف مقرر للنهى.

المعنى الإجمالى:

المعنى الإجمالى: ولله كل كائن فى العالم العلوى والسفلى خلقاً وملكاً، فيعلم ضلال من ضل واهتداء من اهتدى، ويحفظهما ليكافئ الذين ارتكبوا القبائح بما يسود وجوههم، ويكافئ الذين فعلوا الجميل بالجنة، الذين يتركون عظائم الذنوب، وما اشتد قبحه منها. إلا ما قل وصغر. إن سيدك ومالكك ومدبر أمرك عظيم التجاوز عن هفوات عباده، هو أعلم بكم وقت إيجادكم من التراب، ووقت استتاركم فى بطون أمهاتكم، وإذا كان الأمر كذلك فلا تمدحوا أنفسكم على سبيل الإعجاب بها. هو أعلم بمن خاف ربه، وعمل بطاعته، فاتخذ لنفسه وقاية من عقابه.

ما ترشد إليه الآيات:

١- الكائنات كلها لله.

٢- الجزاء من جنس العمل.

٣- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر.

٤- سعة عفو الله تعالى.

٥- إحاطة علمه بأحوال العباد.

٦- الإعجاب بالنفس مذموم.

٧- من مدحه الله هو الممدوح.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ
(٣٤) أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ (٣٥) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ
مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ (٣٧) أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ
(٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ
يُرَىٰ (٤٠) ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ (٤١) وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ
(٤٢) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)
وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) وَأَنَّ
عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ (٤٧) وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ
ٱلشِّعْرَىٰ (٤٩) وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ (٥١)
وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ
أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥)﴾

المناسبة:

لما بين فى الآيات السابقة أن الكائنات له، وأنه عالم الغيب، أنكر هنا أن يكون غيره يعلم الغيب، ثم عدد نعمه ونقمه ترغيبًا وترهيبًا.

سبب النزول:

قال مجاهد وغيره: نزلت فى الوليد بن المغيرة. كان قد سمع قراءة رسول الله ﷺ فقرب من الإسلام، ثم عاتبه رجل من المشركين، فقال له: أتترك ملة آبائك؟ ارجع إلى دين آبائك، وأنا أتحمل لك بكل شىء تخافه فى الآخرة على أن تعطينى كذا من المال، فوافقه الوليد على ذلك، ورجع عمَّا هَمَّ به من الإسلام، وضل ضلالاً بعيدًا ثم قطع باقى العطاء فنزلت.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿وفَّى﴾ بتشديد الفاء، وقرئ بتـخفيفها. وقرأ الجمهور ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ بفتـح همزة أن، وكذلك مـا بعدها من المـواضع، وقرئ بالكسر فيهن. وقرأ الجمهور ﴿وثمود﴾ بغير تنوين. وقرئ بالتنوين.

المفردات:

﴿تولى﴾ أى: أعرض عـن الإسلام. ﴿أكدى﴾ أصله من الكديـة يقال لمن حفر بئرًا ثم وصل إلـى حجر لا يتهيأ له فيـها حفر: قد أكدى ثم اسـتعملته العرب لمن أعطى ولم يتم، ولمن طلب شيئاً فلم يبلغ آخره. **قال الحطيئة:**

فَـأَعْطَى قَلِيـلاً ثُمَّ أَكْـدَى عَطَاءَهُ   وَمَنْ يَبْذُلِ المَعْرُوفَ فِي النَّاسِ يُحْمَدِ

ويقال: كديت أصابعه إذا كلت من الحفـر،وكذا البيت قل ريعه. وأكدى الرجل قل خـيره. ﴿وَفَّى﴾ أتم ما أمـر به نحـو ﴿وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فـأتمهن﴾ ﴿تزر﴾ تحمل. ﴿وازرة﴾ نفس آثمة. ﴿وزر﴾ إثم. ﴿سعى﴾ عمل وقدم. ﴿يرى﴾. أى: يبصر فى الآخرة عند العرض. ﴿الأوفى﴾ الأكـمل. ﴿المنتهى﴾ المرجع والمصير بعد الموت. ﴿أضحك﴾ أفرح حتى انطلـقت الأسارير. ﴿أبكى﴾ أحزن حتى سالت العيـون. ﴿تمنى﴾ تدفق فى الرحم. ﴿النشـأة﴾ الإحياء بعـد الموت. ﴿أغنى﴾ دفع الحاجة وأكسب المال. ﴿أقنى﴾ أعطى مالاً يبقى ويدوم عند صاحبه صالحا للادخار. ﴿الشعـرى﴾ هو الكوكب المضىء الذى يطلع بعد الجـوزاء. وطلوعه فى شـدة الحر ويقـال له: مـرزم الجوزاء. وكـانوا يعـبـدونه فى الجـاهلية. ﴿عـادًا﴾ قـوم هود. ﴿الأولى﴾ أى: القدمـاء أو المتقدمون الأشراف. أو أن هناك عـادًا الأخرى من ولد عاد الأولى. وقيل: الأخرى ثمود. ﴿ثمود﴾ قوم صالح عليه السلام. ﴿فما أبقى﴾ فما ترك فـيهم من باقية. ﴿من قـبل﴾ أى: قبل عاد وثمود. ﴿أظلم﴾ أكـثر تجاوزًا للحد فى الإيذاء. ﴿وأطغى﴾ أشد عتوًا. ﴿والمؤتفكة﴾ هى مدائن قوم لوط من دائرة الأردن. وسـمـيت مـؤتفكة لأنهـا انقلبت. ومنـه الإفك؛ لأنه قلب الحق كـذبا. ﴿أهوى﴾ أسقط بعـد أن رفعهـا إلى السماء، وجعـل عاليها سـافلها. ﴿فغـشاها﴾ فألبسها وكسـاها وجعل فوقهـا من الحجارة مـا الله وحده به عليم. ﴿آلاء﴾ نعم. ﴿تتمارى﴾ تتشكك، أو تجحد.

التراكيب:

قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ الهمزة للاستفهام التعجبي. والفاء للعطف على محذوف يقتضيه السياق، ورأى بصرية مفعولها الموصول، وقيل: علمية ومفعولها الثاني جملة: ﴿أعنده علم الغيب﴾. فهي داخلة في حيز الاستفهام. المقصود منه الإنكار، ويرى علمية أي فهو يعلم أن غيره يتحمل عذاب الآخرة.

وقوله: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧)﴾ ﴿أم﴾ فيه منقطعة، بمعنى (بل) والهمزة وتقديم موسى في الذكر؛ لأن صحفه عندهم أشهر وأكثر، وقوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أن هي المخففة من الثقيلة وهي في محل جر بدل من (ما) في قوله. ﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ أو في موضع رفع خبر لمبتدأ محذوف كأن قائلاً قال: ما في صحفهما؟ فقيل: أن لا تزر وازرة وزر أخرى. وقوله ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أن فيه مخففة من الثقيلة أيضاً واسمها ضمير الشأن محذوف. ولم يفصل هنا بينها وبين الفعل؛ لأنه لا يتصرف. ومحلها الجر أو الرفع عطفاً على أنْ قبلها. وقوله: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ معطوف على ما قبله، فهو في محل جر أو رفع كذلك. وقوله ﴿ثم يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾ الضمير المرفوع في يجزاه عائد على الإنسان والمنصوب عائد على سعيه. والجزاء مصدر مبين للنوع. وقد تعدى يجزى إلى المفعول بنفسه هنا. وقوله. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ بفتح (أَنَّ) عطفاً على ما قبله، وكذلك المواضع السبعة الباقية. وعلى هذا فيكون مضمون هذه الجمل موجوداً في الصحف المذكورة.

وأما على قراءة كسر الهمزة في هذه المواضع الثمانية فعلى الاستئناف، ولا يكون مضمون هذه الجمل موجوداً في الصحف المذكورة، فيكون ما في الصحف قد تم بيانه وانتهى عند قوله ﴿الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾. وقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤)﴾ المفعول في هذه الأفعال محذوف؛ لقصد العموم. وقد أتى بضمير الفصل لدفع ما يتوهم من أنها بفعل الإنسان. وكذلك الحال في قوله: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ﴾، وأما قوله ﴿وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ﴾ فإنه

لم يؤكد بالفصل؛ لأنه لا يتوهم إنسان أنها بفعل أحد من الناس. وهكذا الحال في الإنشاء الآخر وإهلاك عاد. والتعبير بعليه في قوله ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ للإشعار بوجودها لا محالة كأنه تعالى أو جب ذلك على نفسه. وقوله ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ﴾ جيء فيه بضمير الفصل؛ لأن الشعرى لما عبدت من دون الله تعالى نص على أنه تعالى هو ربها وموجدها. وقوله ﴿وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ﴾ ثمود معطوف على ﴿عاداً﴾. وهو بالصرف اسم لأبى القبيلة. والضمير في قوله ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ لقوم نوح. وأنهم أطغى من عاد وثمود. ويجوز أن يكون الضمير لجميع من تقدم من الأمم الثلاثة أى: كانوا أطغى من قريش. ويكون ذلك تسلية لرسول الله ﷺ. وقوله ﴿هم﴾ يجوز أن يكون توكيداً للضمير المنصوب الواقع اسمًا لإِنَّ، ويجوز أن يكون فصلاً؛ لأنه واقع بين معرفة وأفعل التفضيل. وإنما حذف المفضول بعد الواقع خبر لكان لأنه جار مجرى خبر المبتدأ، وحذفه فصيح فيه فكذلك في خبر كان. وقوله ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ﴾ يجوز أن تكون ﴿المؤتفكة﴾ منصوبة بـ﴿أهوى﴾، ويجوز أن يكون معطوفاً على ما قبله. و﴿أهوى﴾ جملة في محل نصب على الحال لتوضيح كيفية إهلاكهم أى: وأهلك المؤتفكة مهوياً بها. وقوله ﴿فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ يجوز أن يكون الفاعل ضميراً يعود على الله عز وجل. وقوله ﴿ما غشى﴾ مفعول به. ويجوز أن يكون الموصول هو الفاعل. والإيهام للتهويل. وقوله ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الباء للظرفية والخطاب للسامع، والاستفهام للإنكار، وقد سبق ذكر نعم ونقم، وقد جعلها كلها آلاء لما في النقم من الزجر والوعظ وهو نعمة لأصحاب العقول.

المعنى الإجمالي:

أمددت عينك فأبصرت الذى أعرض عن الإسلام، وأعطى شيئًا قليلاً لمن تعهد بتحمل العذاب عنه، وقل خيره. ننكر أن يكون لديه علم الغيب، وأنه يعلم أن غيره يتحمل عنه عذاب الآخرة، بل ألم يخبر بالخير الذى في أسفار موسى من

التوراة، وأسفار إبراهيم الذى أتم ما أمـر به، أنه لا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس مذنبة أخـرى، وأن الحال والشأن ليس لأحد من الخلق ثـواب ولا عقاب إلا على عمله، وأن ما يعمله الإنـسان سوف يبصره معروضـاً عليه فى الآخرة، ثم يثاب عليه الثواب الأتم. وأن إلى ربك المصير والمرجع. وأنه سـبحانه لا غيره أفرح من شاء حتى انطلقت أساريره، وأحزن من شاء حـتى سالت عيونه. وأنه سبحانه لا غيره سلب الحياة ممن شاء، ومنحها من شاء، وأنه أوجد الصنفين الذكور والإناث من سائر الحيـوانات من منى عند تدفقه فى الرحم وأن الإحيـاء الآخر بعد الموت حتـم لابد من وجوده. وأنه أكـسب المال وأرضى وأعطى مالاً يبـقى ويدوم عند صاحبه.

وأنه سبحانـه لا غيره مالك مرزم الجوزاء الذى عبـده الجاهلون. وأنه دمر قوم هود وقوم صالح لما كذبوا الرسل، فما ترك منهم باقية. وأهلك قوم نوح من قبل عاد وثـمود. إن قوم نوح كانوا أشد تجـاوزًا للحد فى إيذاء الرسل، وأعتى من قـوم هود وقوم صـالح. والمدائن المنقلبة من دائرة الأردن أسـقطها بعد أن رفعت إلـى السماء على طرف ريشة من جناح جـبريل فجعل عـاليها سـافلها، وأمـطر عليهـا حـجارة من سـجـيل. ففى أى أنـعم الله المتعـددة تتشكك؟.

ما ترشد إليه الآيات:

١- سوء حال من نزلت فيه الآيات.

٢- أن الغيب لله.

٣- أن صحف موسى وإبراهيم المشتهرة تنص على أنه لا يتحمل أحد وزر أحد.

٤- لا ينال الإنسان غير عمله.

٥- سيعرض عليه عمله فيجازى عليه.

٦- تشريف المحسن وتوبيخ المسىء.

٧- إثبات القضاء والقدر.

٨- لابد من البعث حتمًا.

٩- تدمير المكذبين.

١٠- ظهور أنعمه تعالى.

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ۩ ﴿٦٢﴾ ﴾

المناسبة:

لما ذكر أحوال الأولين الذين كذبوا من أنذروهم فأهلكوا، ذكر أن محمداً ﷺ من جنس هؤلاء المنذرين الأولين، وأن إنذاره كإنذارهم.

المفردات:

﴿نذير﴾ رسول يخبر عن الله تعالى، ويخوف من عقابه. ﴿الأولى﴾ القدماء السابقون، ﴿أزفت﴾ دنت وقربت. **قال كعب بن زهير:**

بَانَ الشَّبَابُ وَهَذَا الشَّيْبُ قَدْ أَزِفَا ... وَلاَ أَرَى لِشَبَابٍ بَائِنٍ خَلَفَا

وقال النابغة الذبياني:

أَزِفَ التَّرَحُّلُ غَيْرَ أَنَّ رِكَابَنَا ... لَمَّا تَزَلْ بِرِحَالِنَا وَكَأَن قَدِ

﴿الآزفة﴾ القيامة الموصوفة بالقرب، وقيل: الآزفة علم بالغلبة على الساعة هنا. ﴿كاشفة﴾ أى: نفس مجلية لوقتها فإنه لا يجليها لوقتها إلا هو سبحانه أو رفع لضرها على أن كاشفة مصدر كالعافية، ﴿الحديث﴾ أى: الكلام يعنى القرآن. ﴿تعجبون﴾ تستغربون وتنكرون.

﴿وتضحكون﴾ وتستهزئون. ﴿تبكون﴾ تحزنون يعنى: عند سماعه مع أنه لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً ﴿سامدون﴾ لاهون لاعبون. **قال الشاعر:**

أَلاَ أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ سَامِدٌ ... وكَأَنَّكَ لاَ تَفْنَى وَلاَ أَنْتَ هَالِكُ

قال الآخر:

قِـــيلَ قُمْ فَـــانْظُـر إِلَيْـــهِم ... ثُمَّ دَعْ عَـنْكَ الـسَّـــمُـــوْدَا

وقال أبو عبيدة: «السمود الغناء بلغة حمير يقولون: يا جارية اسمدى لنا أى: غنى لنا، وكانوا إذا سمعوا القرآن غنوا تشـاغلاً عنه، وقيل: السمود الاستكبار، من سمد البعير إذا رفع رأسه، وقيل: هو الجمود والخشوع. **قال الشاعر:**

رَمَى الحِـدْثَانُ نِـسْوَةَ آلِ حَـرْبٍ ... بِأَمْـرٍ قَدْ سَـمَـدْنَ لَه سُمُـودًا

فَـرَدَّ شُـعُـورَهُنَّ السُّـودَ بِيـضًا ... وَرَدَّ وُجُـوهَهُنَّ البِيضَ سُـودًا

﴿فاسجدوا﴾ فصلوا أو خـروا له على وجوهكم عند سماع هذه الآية على أن المراد به سـجود التـلاوة. ﴿واعبـدوا﴾ أى: أفـردوه بالعبـادة، ولا تذلوا أنفسكم لأحد سواه.

التراكيب:

قوله ﴿هـذا نذير من النذر الأولى﴾، الإشارة إلى مـحمـد ﷺ الموصوف بعنوان صاحـبكم فى أول السورة و﴿نذيرٌ﴾ على هذا اسـم فاعل من (أنذر)، وهو غيـر قيـاسى إذ القياس فـيه: منذر، ووصف النذر بالأولى علـى معنى الجمـاعة، وإلا فإنـه كان مقـتضى الظاهر أن يقـول الأول، ويجوز أن تكون الإشارة راجعة إلى القـرآن، ونذير مصدر بمعنى: الإنذار، وهو من أنذر وهو غيـر قياسـى أيضاً بل القيـاس فيه: إنذار، والـتنوين فى نذير للتفـخيم ومن متعلقة بمحـذوف، وهو نعت لنذير. وقوله: ﴿أزفت الآزفة﴾ قيل: اللام فى الآزفة للعهد لا للجنس لئـلا يخلو الكلام عن الفائدة؛ لأنه لا معنى لوصف القريـب بالقرب. وقـيل: لا مانع أن تكون اللام للجنس، ووصف القـريب بالقرب يفيد المبالغة فى قربه.

وقوله : ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ يجوز أن تكون ﴿كاشفة﴾ وصفًا والتأنيـث فيه لأجل أنه صـفة لمؤنث مـحذوف أى: نفس كـاشفـة، أو التاء للمبـالغة كنسابة، أى: ليس لهـا إنسان كاشـفة أى: كثـير الكشف، والأول

أقرب، ويجوز أن تكون ﴿كاشفة﴾ مصدراً كالعاقبة ومعنى الكشف هنا: إما من كشف الشيء أي: عرف حقيقته كقوله: ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾، وإما من كشف الضرّ أي أزاله.

وقوله: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الهمزة للإنكار والفاء للعطف على محذوف يقتضيه المقام أي: أجهلتم فمن هذا الحديث تعجبون، وقوله: ﴿وأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ يجوز أن تكون هذه الجملة مستأنفة، أخبر الله عنهم بذلك، ويجوز أن تكون حالاً من فاعل ﴿وَلا تَبْكُونَ﴾ أي انتفى عنكم البكاء في حال كونكم سامدين.

وقوله: ﴿فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا﴾ الفاء فيه فصيحة أي: إذا كان الأمر كذلك فاسجدوا لله الذي أنزله، واعبدوه وتلقوا هذا الكتاب بالخضوع التام والإيمان الكامل.

المعنى الإجمالي: هذا الرسول المبلغ عن الله تعالى من جنس المنذرين الأولين، وقد علمتم أحوال قومهم لما كذبوهم، فإن كذبتم لن تفلتوا من عذاب الله في الآخرة، وقد دنت الساعة ولا يوجد أحد يعلم وقتها إلا الله عز وجل، أجهلتم فمن هذا القرآن تستغربون فتنكرون وتستهزءون، ولا تخشعون عند تلاوته مع أنه لو أنزل على جبل لرأيته خاشعًا متصدعًا من خشية الله، وأنتم لا هون منصرفون عنه إذا كان هذا حقيقة فصلوا لله وأفردوه بالعبادة وتلقوا هذا الذكر بالإيمان الكامل.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - تهديد مَنْ كذب محمداً ﷺ.

٢ - الإشارة إلى عدم استئصالهم.

٣ - لا تنفع الكفار شفاعة الشافعين.

٤ - العجب من عجب قريش من القرآن وإنكارهم له مع أنه كان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين.

٥ - حضهم على تلقي هذا الكتاب بالخضوع التام والإيمان الكامل.

سورة القمر

ترتيبها ٥٤ — آياتها ٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا
وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ
وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ (٣) وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ
مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ
(٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ (٦)
خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧)
مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨)﴾

المناسبة:

لما ذكر في أواخر السورة السابقة أنه أزفت الآزفة، قال هنا: اقتربت الساعة.

سبب النزول:

أن مشركي مكة سألوا رسول الله ﷺ آية ليؤمنوا، فانشق القمر فرقتين، فقال رسول الله ﷺ: اشهدوا اشهدوا. فقال المشركون: سَحَرَ محمدٌ أعيننا فنزلت.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿يَرَوا آية﴾ ببناء يروا للفاعل، وقرئ: ﴿يُروا﴾ بالبناء للمفعول. وقرأ الجمهور ﴿حكمةٌ بالغةٌ﴾ برفعهما، وقرئ بنصبهما، وقرأ الجمهور ﴿نُكُر﴾ بضم النون والكاف، وقرئ بتسكين الكاف، وقرئ بكسر الكاف فعلاً ماضيًا مبنيًا للمجهول. وقرأ الجمهور ﴿خُشَّعًا﴾ وقرئ ﴿خاشعًا﴾.

المفردات:

﴿اقتربت﴾ ازدادت فى الدنو، ﴿انشق﴾ انفلق. ﴿يروا﴾ يبصروا، ﴿آية﴾ معجزة تدلُّ على صدق محمد ﷺ. ﴿يعرضوا﴾ يمتنعوا عن الإيمان بها. ﴿مستمر﴾ أى: دائم وقيل: محكم قوى من المِرَّة وهى القوة، وقيل غير ذلك. ﴿مستقر﴾ أى: منته إلى غاية يستقر، ويثبت عليها لا محالة. ﴿الأنباء﴾ أخبار تدمير الأمم المكذبة رسلهم. ﴿مزدجر﴾ ارتداع، وأصل مزدجر (مزتجر) أبدلت تاء الافتعال دالاً؛ لأن تاء الافتعال تقلب دالاً بعد الزاى والدال والذال. ﴿حكمة﴾ عدالة: ﴿بالغة﴾ تامة. ﴿النذر﴾ جمع نذير بمعنى: المنذر أو مصدر بمعنى الإنذار.

﴿فتول﴾ فأعرض. ﴿يدع﴾ ينادى. ﴿الداع﴾ المنادي بالحشر لفصل القضاء وهو الملك الموكل بذلك. ﴿نكر﴾ فظيع تنكره النفوس لشدته وهوله.

﴿ونُكِر﴾ بالبناء للمجهول أى: جهل وجحد. يقال: نكر فلان الأمر كفرح، وأنكره واستنكره، وتناكره أى: جهله. ﴿خشعًا﴾ أذلة. ﴿الأجداث﴾ القبور. ﴿مهطعين﴾ مسرعين مادِّى أعناقهم كالإبل العطاش. **قال الشاعر:**

بِدِجْلَةَ دَارُهم ولَقَدْ أَرَاهُم   بِدِجْلَةَ مُهْطِعِين إِلَى السَّمَاعِ

وقيل: المهطع هو من ينظر فى ذل وخضوع لا يقلع بصرَه عن الشىء. **قال الشاعر:**

تَعَبدَنِى نمرُ بن سعدٍ وَقَد أُرَى   ونمرُ بنِ سَعْدٍ لِى مُطِيعٌ وَمُهْطِعُ

﴿عسر﴾ أى: صعب شديد، يعنى: على الكافرين.

التراكيب:

قوله: ﴿وإن يروا آية يُعرضوا﴾ جىء بالجملة شرطية؛ ليدل على أنهم فى الاستقبال على مثل حالهم فى الماضى.

وقوله ﴿وكذبوا واتبعوا﴾ جىء بالفعلين فيه بلفظ الماضى، للإشعار بأنهما من عادتهم القديمة.

وقوله: ﴿وكل أمر مستقر﴾ مبتدأ وخبر، والجملة: استئناف مسوق، لإقناطهم مما أملوه من عدم استقرار أمر النبي ﷺ. وقوله ﴿ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر﴾ اللام موطئة للقسم وما موصولة أو موصوفة وهي فاعل جاء (من الأنباء) من: بيانيّة، و(الأنباء) مجرور بها، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال منها، وفيه خبر مقدم و(مزدجر) مبتدأ مؤخر والجملة صلتها. وإذا كانت موصوفة فالجملة صفتها، ومزدجر اسم مصدر أي: ازدجار، أو اسم مكان أي: موضع ازدجار، وعلى هذا ففي الكلام تجريد. وقوله: ﴿حكمة﴾ بالرفع بدل من ما أو خبر لمبتدأ محذوف أو بدل من مزدجر. وأما على قراءة النصب فهو حال من ﴿ما﴾ سواء أكانت موصولة أم موصوفة؛ لأنها إذا جُعلت موصوفة فقد تخصصت بالصفة فساغ مجيء الحال منها وقوله: ﴿فما تغن النذر﴾ الفاء فيه فصيحة. و﴿ما﴾ للنفي أو للاستفهام الإنكاري وهي على الثاني منصوبة، إما مفعول مطلق والتقدير: فأي إغناء تغني النذر؛ وإما مفعول به والتقدير: فأي شيء من الأشياء النافعة تغني النذر؛ أي تحصِّله وتكسبه، والتعبير بالمضارع للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدُّد مجيء الزواجر واستمراره، وقد حُذفت الياء من ﴿تُغنِ﴾ اتباعا لرسم المصحف وموافقةً للفظ وقوله: ﴿فتول عنهم﴾ الفاء لترتيب الأمر بالتولي على ما قبله، وبيان نتيجته، وقد تم الكلام. وقوله ﴿يوم يدع الداع إلى شيء نكر. خشعًا أبصارهم، يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر. مهطعين إلى الداع﴾ استئناف لبيان أهوال القيامة وسوء أحوال الكافرين. والظرف منصوب باذكر مضمرًا أو بيخرجون بعده، ويجوز أن ينتصب بقوله: ﴿فما تغن﴾ وعلى هذا يكون قوله: ﴿فتول عنهم﴾ اعتراضاً، وحذفت الواو من: ﴿يدعُ﴾ خطًّا تبعًا للفظ، وحذفت الياء من الداعِ تخفيفاً. قالوا: وهذا إجراء لأل مجرى ما عاقبها وهو التنوين؛ فكما تحذف معه حذفت معها. وقوله: ﴿نُكُر﴾ بضمتين صفة على (فعل) وهو قليل في الصفات، ومنه روضة أنُف، ورجل شُلُل أي: خفيف في الحاجة. وعلى قراءة ﴿نُكِرَ﴾ فعلاً مبنيًا للمجهول. فالجملة في محل جر صفة لشيء. وقوله: ﴿خشعاً

أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر مهطعين﴾ خشعا: حال من فاعل يخرجون مقدم عليه، والتقديم لأن العامل متصرف، و﴿أبصارهم﴾ فاعل خشعاً، والتذكير على قراءة ﴿خاشعاً﴾؛ لأن فاعله ظاهر غير حقيقى التأنيث، وقوله: ﴿كأنهم جراد منتشر﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل يخرجون وقوله: ﴿مهطعين﴾ حال منه كذلك، وقوله ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ استئناف وقع جواباً عن سؤال مقدر نشأ من وصف اليوم بالأهوال، كأنه قيل فما يكون حينئذ؟ فقيل ﴿يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾.

المعنى الإجمالى:

دنت القيامة وانفلق القمر، وإن يبصر الكفار برهانًا على صدق محمد ﷺ يمتنعوا عن التصديق به، ويقولوا: سحر دائم أو محكم قوى، وكذّبوا وانقادوا لشهواتهم وميولهم الفاسدة.

وسيرون عاقبة هذا التكذيب، ولكل أمر غاية يستقر عليها، ووالله لقد أتاهم من أخبار الأمم المكذبة رسلها الذى يكفى لِوعظهم لو كانوا يتعظَون، وفى ذلك عدالة تامة فأى شيء تحصله الإنذارات إذا عميت القلوب فأعرض عنهم؟! واذكر يوم ينادى المنادى إلى أمر خطير تنكره النفوس لشدة هوله.

أذلة عيونهم، يبرزون من قبورهم مشبهين بالجراد الموزع فى الجو مسرعين مادِّى أعناقهم كالإبل العطاش إلى هذا المنادى، يقول الجاحدون: هذا يوم صعب شديد.

ما ترشد إليه الآيات:

١ - قرب الساعة.

٢ - انشقاق القمر.

٣ - إعراض الكفار عن الإيمان بالآيات.

٤ - اتهامهم النبى ﷺ بالسحر.

٥ - بيان أهوال القيامة وسوء أحوال الكافرين فيها.

*****

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ
قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا
رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ
(١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢)
وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ
كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ
(١٧)﴾

المناسبة:

لما ذكر أنه جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر شرع فى تعداد بعض هذه الأنباء على سبيل التفصيل.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿أنّى﴾ بفتح الهمزة، وقرئ بكسرها. وقرأ الجمهور ﴿فالتقى الماء﴾ وقرئ ﴿فالتقى الماءان﴾. وقرأ الجمهور ﴿كُفِرَ﴾ مبنياً للمفعول، وقرئ ﴿كفَر﴾ مبنياً للفاعل.

المفردات:

﴿ازدجر﴾ انتهر وأوذى. ﴿مغلوب﴾ مقهور. ﴿فانتصر﴾ أى: فانتقم لى منهم ﴿منهمر﴾ منصب بشدة وغزارة. ﴿وفجرنا﴾ شققنا. ﴿أمر﴾ حال. ﴿قدر﴾ قضى فى الأزل. ﴿ذات ألواح ودسر﴾ كناية عن السفينة، والألواح الأخشاب العريضة والدسر المسامير. ﴿آية﴾ عبرة ظاهرة أو علامة واضحة. ﴿مدكر﴾ معتبر ومتعظ وأصل مدكر: مذتكر أبدلت التاء دالاً، وكذلك الذال

ثم أدغمت الدال فى الدال ﴿نذر﴾ إنذارى. ﴿يسرنا﴾ سهلنا وهيأنا. ﴿للذكر﴾ للحفظ والتذكر.

التراكيب:

قوله ﴿كذبت قبلهم قوم نوح﴾ التأنيث فى كذبت؛ لمراعاة معنى قوم، وهو الأمة والجماعة، والضمير فى ﴿قبلهم﴾ لقريش وقوله: ﴿فكذبوا عبدنا﴾ الفاء فيه لتفصيل الإجمال كقوله: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ﴾ [هود:٤٥] : وقوله: ﴿وازدجر﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على قالوا أى: لم يكتفوا بهذا القول بل ضموا إليه زجره ونهره، ويجوز أن يكون من مقول القول المذكور أى: قالوا هو مجنون واستطير جنوناً أى: ازدجرته الجن، وذهبت بلبه وتخبطته، والظاهر الأول وقوله: ﴿أنى مغلوب﴾ بفتح الهمزة على تقدير: بأنى مغلوب، وهذا على حكاية المعنى، ولو جاء على حكاية اللفظ لقال بأنه مغلوب، ومن قرأ بكسر الهمزة فهو: إما على إضمار القول أى: فقال إنى مغلوب، وإما إجراءً للدعاء مجرى القول وهو مذهب الكوفيين، وقوله ﴿بماء منهمر﴾ الباء فيه للتعدية على جعل الماء كالآلة التى يفتح بها مبالغةً. ويجوز أن تكون الباء للملابسة والجار والمجرور فى موضع نصب على الحال. وانتصب عيونًا فى قوله: ﴿وفجرنا الأرض عيونًا﴾ على التمييز المحول عن المفعول به أى: (فجرنا عيون الأرض) وتحويله للتمييز أبلغ من أصله لأن الأرض جعلت كلها كأنها عيون مفجرة، وقوله: ﴿فالتقى الماء﴾ على قراءة الجمهور بإفراد الماء لإرادة الجنس كأنه قيل: فالتقى ماء السماء وماء الأرض، ولإفادة تحقيق أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة والتقارب بل بطريق الاختلاط والاتحاد، ومن قرأ ﴿الماءان﴾ بالتثنية فلاختلاف النوعين، والضمير المنصوب فى ﴿وحملناه﴾ لنوح عليه السلام. وقوله ﴿تجرى﴾ فى محل جر صفة لسفينة المكنى عنها بذات ألواح ودسر، وجمع الأعين فى قوله ﴿بأعيننا﴾ لإضافته إلى ﴿نا﴾، وقد

لوحظ أنه إذا وردت العينَ أو اليد بلفظ المفرد أضيـفت إلى ياء المتكلم أو ضمير الواحد فقط، كـقوله ﴿ولِتُصْنَع على عينى﴾. وكذلـك إذا وردت بلفظ التثنية، وأما إذا وردت بلفظ الجـمع فإنهـا لا بد من أن تكون مضافـة إلى نا التى هى للجمع أو لـلواحد المعظم كمـا فى هذا المقام، فـلا تدل على إثبات أكـثر من عينين لله عـز وجل؛ لأن الجمع فيـها للتعظيم ومناسـبة الضميـر. والثابت لله تعالى عينان بلا تشـبيه ولا تمثيل ولا تكييـــف ولا تأويل، وانتصب جزاءً فى قوله: ﴿جزاء لمن كان كفر﴾ بفعل مـقدر أى: أغرقوا جـــزاءً وانتصاراً، وقوله ﴿لمن كان كفــر﴾ يعنى: نوحاً عليه السلام، والتعـبير بكفر لبيان أنه كـان نعمة ساقـها الله لهم فـجحدوها. ومن قـرأ ﴿كفر﴾ بالـبناء للمعلوم فتـقـــديره: أغرقوا عـقابا للكافرين. وقوله: ﴿ولقـد تركناها آية فهل من مدكر﴾ الضـمير المنصوب فى تركناها قـيل: للسفينة، وقـيل: للفعلة و﴿مدكـر﴾ مبتدأ وخـبره محذوف وتقـديره: فهل مدكر مـوجود؟ والمراد من الاستفهـام التوبيـــخ على عدم الادكار مع ظهور أسبابه، وقوله: ﴿فكيف كان عـــذابى ونذر﴾ الاستفهام فيه للتقرير والتعظيم والتعجـب، و﴿كيف﴾ خبر كان إن كانت ناقـــصة، وأما إذا كانت تامـة فهى فى موضع نصب على الحال، وقوله ﴿ولقد يسرنا القــرآن للذكــر فهل من مدَّكـر﴾ تكررت هذه الآية والآية السـابقة فى آخر الـقصص الأربع تقـريراً لمضمـون ما سبـق من قوله ﴿ولقـد جاءهم من الأنبـاء ما فـيه مزدجر. حـكمه بالغة فمـا تُغْنِ النذر﴾ وتنبيهاً على أن كل قـصة منها مسـتقلة بإيجاب الادكار فـيها، وإشعاراً بأن تكذيب كل رسول مـقتضٍ لنزول العذاب، وليجـددوا عقيب سماع كـل نبأ اتعاظاً واستـئنافاً للتنبيه والإيقـاظ؛ لئلا يغلب عليهم السهو والغفلة.

المعنى الإجمالى:

أنكرت قبل قريش جماعةُ نوحٍ عليه السلام فنسبوا عبدنا الصالح نوحاً إلى

الكذب والافتراء، وقالوا به مس من الجن، ونهروه فسأل ربه بأنى مقهور فانتقم من هؤلاء المكذبين، فاستجبنا له، وجعلنا السماء ترسل عليهم الماء الغزير من جميع أبوابها، وشققنا الأرض عيونًا، فاختلط ماء السماء بماء الأرض على حالٍ قضاها الله تعالى فى الأزل.

وحملنا نوحًا على سفينة ذات أخشاب عريضة ومسامير، تسير بسرعة فائقة فوق الماء تحت أبصارنا، فأغرقنا الكافرين انتصارًا لعبدنا الصالح الذى كان نعمةَ الله عليهم فجحدوها، ولقد أبقينا هذه السفينة أو هذه الفعلة، برهانًا واضحًا على قدرتنا وانتقامنا من أعدائنا، فهل من متعظ موجود؟

لقد نزل بهم عذابى، ووقع عقابى موقعه، ولقد هيأنا القرآن وسهلناه للحفظ والتذكر، فهل من متعظ موجود؟

ما ترشد إليه الآيات:

١ - لقريش سلفٌ سيء فى تكذيب الأنبياء ونسبتهم إلى الجنون.

٢ - انتصار الله لعباده الصالحين.

٣ - إغراق المكذبين بعذاب بئيس.

٤ - إثبات العينين لله عز وجل بلا تشبيه ولا تمثيل.

٥ - تيسير القرآن للحفظ والتذكر.

******

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٢١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٢٢) ﴾

المناسبة:

لما كانت عاد هى التى أعقبت قوم نوح فى التاريخ، ذكرها عقيبها هنا.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿فى يوم﴾ بغير تنوين يوم، وقرئ بتنوينه.

المفردات:

﴿صرصرًا﴾ أى: شديدة الصوت أو البرد، إما من صرير الباب وهو تصويته أو من الصر الذى هو البرد.

﴿نحس﴾ أى: طار غباره فى أقطار السماء، وامتلأ شرًا على الكافرين. ﴿مستمر﴾ ممتد الشر أو قويه. ﴿تنزع﴾ تقلع. ﴿أعجاز﴾ أصول. ﴿منقعر﴾ منقلع من أصله، من قعرت الشجرة قعرًا إذا قلعتها من أصلها فانقعرت، وقعرتُ البئر: نزلت حتى انتهيت إلى قعرها، وقعرت الإناء: شربت ما فيه حتى انتهيت إلى قعره.

التراكيب:

قوله ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر﴾ إنما عُرِّف عاد بالعلمية وعُرِّف قوم نوح بالإضافة؛ لأنه لما كانت (عاد) علمًا لقوم هود كان مقتضى المقام تعريفها بالعلمية؛ لأنها أبلغ فى الذكر من التعريف بالإضافة، ولما لم يكن لقوم نوح عَلَمٌ عرَّفها بالإضافة إلى نوح، والفاء فى قوله ﴿فكيف كان عذابى ونذر﴾ للترتيب على محذوف تقديره: «فعذبوا فكيف كان عذابى ونذر»

وقوله ﴿إنا أرسلنا عليهم ريحًا صرصرًا﴾ استئناف؛ لبيان ما أجمل أولاً من العذاب. وقوله ﴿تنزع الناس﴾ يجوز أن يكون صفة للريح أو يكون حالاً منها؛ لأنها وُصفت فقربت من المعرفة، ويحتمل أن يكون مستأنفًا، وإنما قال ﴿تنزع الناس﴾ ولم يقل تنزعهم فوضع الظاهر موضع الضمير؛ ليشمل ذكورهم وإناثهم، وقوله ﴿كأنهم أعجاز نخل منقعر﴾ فى محل نصب على الحال من الناس وهى حال مقدرة، وقيل فى الكلام حذف، والتقدير: فتتركهم كأنهم أعجاز نخل، وإنما شبهوا بأعجاز النخل وهى أصولها بلا فروع؛ لطولهم، ولأن الريح كانت تقلع رءوسهم فتبقى أجسادًا بلا رءوس، وإنما ذكر الصفة وهى منقعر بالنظر إلى لفظ النخل، و(النخل) اسم جنس يُذكَّر ويؤنث، والتذكير هنا أولَى؛ لمناسبة الفواصل، وأنث فى الحاقة فقال ﴿أعجاز نخل خاوية﴾ بالنظر إلى المعنى؛ ولمناسبة الفواصل فيها.

المعنى الإجمالى:

جحدت قوم هود رسالة هود فعذبوا، فكان عذابهم عجيبًا غريبًا؛ إنا سلطنا عليهم ريحا شديدة الصوت أو البرد فى يوم تطاير شره عليهم، وامتد بلاؤه، تقلع ذكورهم وإناثهم مِن حُفَرِ الأرض المندسين فيها، وتصرعهم على رءوسهم فتدق رقابهم، فتبين الرأس عن الجسد، مشبهين بأصول نخل لا فروع لها، وقد قُلعت من مغارسها. لقد عُذِّبوا فكان عذابهم عجيبا، إنا سهلنا القرآن وهيأناه للتلاوة والحفظ، فهل من متعظ موجود؟

ما ترشد إليه الآيات:

١ - بيان نوع العذاب الذى عذب به قوم هود.

٢ - حالتهم البشعة عند نزول العذاب عليهم.

٣ - تخويف قريش وتهديدهم.

٤ - الإعذار بتيسير أسباب المعرفة.

******

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا
مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ
مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ
الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾
وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ
فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ
لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾﴾

المناسبة:

لما كانت ثمود تعقب عاداً فى التاريخ أتى بها عقيبها فى الذكر.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿أبشرًا منا واحدًا﴾ بنصبهما؛ وقرئ ﴿أبشرٌ منا واحدٌ﴾ برفعهما.
وقرأ الجمهور ﴿سيعلمون﴾ بالياء؛ وقرئ بالتاء.

المفردات:

﴿واحدًا﴾ أى: منفردًا لا تبع له، أو واحدًا يعنى: من آحاد الناس وليس بملك ولا من أشرافهم. ﴿نتبعه﴾ ننقاد له. ﴿ضلال﴾ حيرة وميل عن الصواب، وذهاب عن الجادة. ﴿سُعر﴾ أى: جنون من قولهم: ناقة سعورة إذا كانت تفرط فى سيرها كأنها مجنونة. قال الشاعر:

كَأَنَّ بِهَا سُعُرًا إِذَا الـعيس هزَّهَا ... زَمِيلٌ وَإِزْجَاءٌ مِنَ السَّيْرِ متعب

وفسَّر قتادة السُعُر بالعناء، وقيل: السُعُر النيران جمع سعير، وهو وقود النار ﴿أألقى﴾ أأنزل: ﴿الذكر﴾ الكتاب والوحى. ﴿أشر﴾ أى: متكبر بطر يريد العلو

علينا ﴿غدا﴾ يراد به هنا الزمان المستقبل لا اليوم الذى يلى خطابهم. قال الطرماح:

أَلاَ عَلِّلاَنِى قَبْلَ نَوْحِ النَّوَائحِ ... وَقَبْلَ اضْطِرَابِ النَّفْسِ بَيْنَ الجَوَانِحِ
وَقَبْلَ غَدًا يَا لَهْفَ نَفْسِى فِى غَدٍ ... إِذَا رَاحَ أَصْحَابِى وَلَسْتُ بِرَائِحِ

يريد وقت الموت لا غدا بعينه. ﴿مرسلو الناقة﴾ أى: موجدوها ومخرجوها من الصخرة. ﴿فتنة﴾ أى: ابتلاء واختبارا. ﴿فارتقبهم﴾.. فانتظر يا صالح ما هم صانعون، وما يصنع بهم. ﴿اصطبر﴾ أى: أصبر على أذاهم وتجمل بالصبر. ﴿ونبئهم﴾ أى: أخبرهم إخبارًا عظيمًا عن أمر عظيم. ﴿قسمة﴾ أى: مقسوم لها يوم ولهم يوم ﴿شرب﴾ نصيب من الماء. ﴿محتضر﴾ يحضره صاحبه فى نوبته. ﴿فنادوا﴾ أى: دعوا رجلاً ليقتلها. ﴿صاحبهم﴾ هو قدار بن سالف كما رُوى عن محمد بن إسحاق.

﴿فتعاطى﴾ فتناول السيف، والتعاطى تناول الشىء بتكلف. ﴿فعقر﴾ أى: فقتل الناقة، من العقر: وهو الجرح أو من عقر النخلة: إذا قطع رأسها. ﴿كهشيم﴾ كحشيش يابس يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فتفتته، أو ما يتفتت من الشجر الذى يتخذه للحظيرة. ﴿المحتظر﴾ صانع الحظيرة وهى ما يصنعه العرب وأهل البوادى للمواشى والسكن من الأغصان والشجر والقصب، من الحظر وهو المنع؛ لأنها تمنع ما بداخلها، وتحفظه من الذئاب والسباع والحر والبرد.

التراكيب:

قوله ﴿أبشرًا منا واحدًا نتبعه﴾ الهمزة للاستفهام الإنكارى بمعنى: النفى و﴿بشرًا﴾ مفعول به لفعل محذوف يفسره المذكور بعده. و﴿منا﴾ صفة. وواحدا صفة ثانية وجملة: ﴿نتبعه﴾ تفسير للفعل المحذوف لا محل لها من الإعراب، وأما على قراءة ﴿أبشرٌ منا واحدٌ نتبعه﴾ بالرفع فيهما فبشر: مبتدأ و﴿منَّا واحد﴾ صفتان له، وخبره ﴿نتبعه﴾، والتنوين فى إذاً عوض عن المضاف إليه المحذوف أى: إذا اتبعناه، والاستفهام فى قوله ﴿أألقى﴾ للإنكار، وقوله ﴿ستعلمون﴾ بالتاء على الالتفاف لتشديد التوبيخ أو على حكاية ما أجابهم به صالح وقوله.. ﴿منْ الكذاب الأشر﴾ مَنْ (استفهامية) معلقة بيعلمون عن العمل، وهى مبتدأ والكذاب خبرها، والجملة: سدت مسد المفعولين، وقوله ﴿إنا مرسلو الناقة﴾ مستأنف، وقوله ﴿فتنة﴾ مفعول لأجله، والفاء فى قوله ﴿فارتقبهم﴾ فصيحة والطاء فى قوله

﴿واصطبر﴾ بدل من تاء الافتعال، وقوله ﴿كل شرب محتضر﴾ مبتدأ وخبر والجملة: مستأنفه لبيان القسمة، وقولهم ﴿فنادوا صاحبهم﴾ الفاء للعطف على محذوف أى: «فملوه فهموا بقتل الناقة فنادوا صاحبهم» ومفعول تعاطى محذوف لظهوره وكذلك مفعول عقر.

المعنى الإجمالى:

جحدت قوم صالح الإنذارات التى جاءت عن الله، وأنكروا أن ينقادوا لرجل واحد من جنسهم، قائلين: إنا إن انقدنا له لفى حيرة وبُعْد عن الصواب وجنون، أأنزل عليه الكتاب والوحى دوننا مع أنه ليس بأشرفنا ولا أكثرنا مالاً. بل هو كثير الافتراء بطر متكبر يريد العلو علينا. عن قريب يتبين لهم أيهما المفترى المتكبر أهو صالح أم هم؟ إنا مخرجو الناقة من الصخرة - كما بعثناك من بينهم - اختباراً وابتلاءً لهم، فانتظر يا صالح ما هم صانعون وما يُصنع بهم.

وتجمل بالصبر حتى يأتيك النصر، وأخبرهم إخباراً عظيماً أن ماء البئر الذى يشربون منه مقسوم بينهم وبين الناقة، كل نصيب من الماء يحضره صاحبه فى نوبته، فملوا وهموا بقتل الناقة، فنادوا أحد رجالهم المبالغين فى الضلال. فتناول سيفًا فقتل الناقة فأهلكتهم فكان إهلاكهم بعذاب عجيب.

إنا بعثنا عليهم صوتًا فظيعًا مرة واحدة من جبريل، فصاروا شبه حشيش يابس داسته المواشى فى الحظيرة. ولقد هيأنا القرآن للحفظ، ويسرناه للتلاوة فهل من متعظ موجود؟.

ما ترشد إليه الآيات:

١- إنكار ثمود للنذير البشرى.

٢- زعمهم أن اتباع الرسل بُعْدٌ عن الصواب وجنون.

٣- رمى صالح بالكذب والتكبر.

٤- تهديدهم بعقاب عاجل.

٥- تدميرهم لما كذبوا الرسل.

٦- كان تدميرهم الفظيع فى غاية السهولة.

٧- فى القرآن مواعظ فاتعظوا.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا
كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا
بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا
عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨)
فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾

المناسبة:

لما كانت قرى قوم لوط المؤتفكة هى أقرب دورا لهـا، لكن إلى ديار ثمود من جهة الشام فى طريق أهل مكة. ذكرها هنا عقيبها؛ لأنهم يمرون عليهم مصبحين وبالليل.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿بكرةً﴾ بالتنوين. وقرئ بغير تنوين.

المفردات:

﴿حاصبًا﴾ أى: ريحًا شديدة تحصبهم أى: ترميهم بالحصباء، وهى صغار الحجارة. ﴿آل لوط﴾. هم لوط وابنتاه. ﴿نجيناهم﴾ خلصناهم. ﴿بسحر﴾ أى: قبيل انصداع الفجر. ﴿نعمة﴾ إحسانًا. ﴿نجزى﴾ نثيب. ﴿شكر﴾ اعترف بنعمتنا وأطاع أمرنا. ﴿أنذرهم﴾ خوفهم وحذرهم. ﴿بطشتنا﴾ أخذتنا الشديدة بالعذاب. ﴿فتماروا﴾ فتشككوا وكذبوا، وهى مشتقة من المرية. ﴿بالنذر﴾ بالأمور التى خوفهم بها لوط. ﴿راودوه﴾ أى: طلبوا منه المرة بعد المرة أن يخلى بينهم وبين الضيوف، وأن يمكنهم من هؤلاء الأضياف للفاحشة. ﴿ضيفه﴾ الملائكة الذين زاروه للبشارة بنصر الله وتدمير المكذبين. ﴿طمسنا أعينهم﴾ أعميناهم ومسحنا أعينهم، وسويناها كسائر الوجه من الطموس، وهو الدروس والإعماء. ﴿فذوقوا عذابى﴾ فاختبروا طعمه، وهذا

على سبيل التبكيت بسبب إنكارهم ﴿صبحهم﴾ أتاهم عند الصباح. ﴿بكرة﴾ غدوة فى أول النهار. ﴿مستقر﴾ دائم متصل بعذاب الآخرة.

التراكيب:

قوله ﴿إلا آل لوط﴾ الاستثناء متصل، ولم يرسل الحاصب على آل لوط. وقوله ﴿نجيناهم بسحرٍ﴾ استئناف بيانى كأن سائلا سأل: وماذا حصل لآل لوط؟ فقيل: ﴿نجيناهم بسحر﴾ يعنى: أنهم خرجوا من البلد قبل إرسال الحاصب على أهلها، فإنَّ آل لوط خرجوا بسحر يعنى قبيل الفجر، وأرسل الحاصب فى الصباح بعد خروجهم، كما قال ﴿إن موعدهم الصبح﴾. وتنوين بسحرٍ؛ لأنه لا يراد هنا سحر بعينه.

وقوله ﴿نعمة﴾ مفعول مطلق ملاق لعامله فى المعنى، وهو نجيناهم؛ لأن الإنجاء نعمة، ويجوز أن يكون مفعولاً لأجله والعامل (نجينا). وقوله ﴿فتماروا بالنذر﴾ إنما عدى فتماروا بالياء، لأنه ضمن معنى التكذيب فعدى تعديته.

وقوله ﴿فذوقوا عذابى ونذر﴾ الفاء داخل على محذوف تقديره: «فقلنا لهم ذوقوا»، وذوقوا عذابى: مقول لهذا القول المحذوف.

المعنى الإجمالى:

لم تصدق جماعة لوط بالأمور المنذرة لهم على لسانه، إنا سلطنا عليهم ريحًا ترميهم بالحصباء إلا لوطًا وابنتيه. خلصناهم قبل انصداع الفجر. إنعامًا منًا عليهم. مثل ذلك الجزاء نثيب من اعترف بنعمتنا وأطاع أوامرنا. والله لقد خوفهم لوط أخذتنا الشديدة بالعذاب، فتشككوا وكذبوا بالإنذارات، ووالله لقد طلبوا منه المرة بعد المرة أن يخلى بينهم وبين أضيافه من الملائكة للفاحشة فمحونا أعينهم، وسوينا وجوههم، فلم يبقَ بها أثر للأعين، وصارت كسائر الوجه، فقلنا لهم: اختبروا طعم عقابى وإنذاراتى. وبالله لقد نزل بهم وقت الصباح أول النهار عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة. فقلنا لهم: اختبروا طعم عقابى وإنذاراتى. وتاللهِ لقد هيأنا القرآن للتلاوةَ وسهلناه للحفظ فهل من متعظ موجود؟

ما ترشد إليه الآيات:

١- إنكار قوم لوط للنذير.

٢- تدمير المكذبين.

٣- إنجاء المؤمنين.

٤- الشكر يدفع الله به البلاء.

٥- نصح لوط عليه السلام لقومه.

٦- تسليط أنواع من العذاب عليهم.

٧- اتعظوا يا أهل مكة.

******

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ
أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ
فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ
وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ
(٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ
عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩)
وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ
فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ
فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

المناسبة:

لما كانت قصة آل فرعون من أشهر القصص لدى أهل مكة، وكانت بعد قوم لوط بزمان ختم بها القصص الواردة فى هذه الصورة.

القراءة:

قرأ الجمهور ﴿أم يقولون﴾ بياء الغيبة، وقرئ بتاء الخطاب، وقرأ الجمهور ﴿سيُهْزَمُ الجمع﴾ بالبناء للمفعول وضم العين، وقرئ ﴿سَيَهْزِمُ﴾ بالياء مبنيا للفاعل وهو الله عز وجل وقرئ بالنون مبنيا للفاعل. وقرئ ﴿ويولون﴾ بالياء وقرئ بالتاء. وقرئ ﴿إنا كُلَّ شيء﴾ بنصب كل. وقرئ برفعها شذوذًا. وقرأ الجمهور ﴿ونهر﴾ بفتح النون والهاء وقرئ بضمهما.

المفردات:

﴿النذر﴾ الإنذارات والتحذيرات على لسان موسى وهارون ﴿بآياتنا﴾ أى: حججنا التسع وهى: العصا، واليد، والسنين، والطمس، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع والدم. ﴿فأخذناهم﴾ فأهلكناهم، والأخذ الأسر للقتل ويسمى الأسير الأخيذ. ﴿عزيز﴾ قوى غالب. ﴿مقتدر﴾ قادر لا يعجزه شىء. ﴿خير﴾ أقوى وأشد وأعظم مكانة فى الدنيا. ﴿براءة﴾ أمن وعهد بالنجاة وعدم المؤاخذة ﴿الزبر﴾ الكتب الإلهية ﴿جميع﴾ أى: جماعة مجتمع أمرنا فكلنا يد واحدة: ﴿منتصر﴾ لا نرام ولا نضام ولا نغلب. ﴿سيهزم﴾ سيدحر. ﴿الدبر﴾ هو هنا اسم جنس وهو كناية عن الهزيمة والقهر، فكأنهم يمكنون أعداءهم من أدبارهم؛ ليضربوها. ﴿أدهى﴾ أعظم داهية وبلية. والداهية: الأمر الفظيع الذى لا يهتدى إلى الخلاص منه. ﴿أمر﴾ أشد مرارة. ﴿يُسحبون﴾ يُجرون. ﴿مس سقر﴾ إصابة جهنم. وسقر مشتق من: سقرته الشمس أو النار أى: لوحته بمعنى غيرت جلده ولونه من ملاقاة حرها أو أحمته. ﴿بقدر﴾ أى: بتقدير. والقدر: اسم لما صدر مقدرًا عن فعل القادر، يقال: قدرت الشىء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنى واحد. ﴿واحدة﴾ أى: كلمة واحدة هى كن. ﴿لمح﴾ اللمح النظر بالعجلة يقال: لمحه إذا أبصره بنظر خفيف. ﴿أشياعكم﴾ أشباهكم فى الكفر. ﴿الزبر﴾ جمع زبور وهو الكتاب يعنى: ديوان الحفظة. ﴿مستطر﴾ مكتتب مسطور فى اللوح. يقال: سطره واستطره إذا كتبه فهما بمعنى واحد. ﴿جنات﴾ بساتين. ﴿نَهَر﴾ بفتحتين وهى اللغة العالية، وهى أفصح من ﴿نَهْر﴾ بفتح النون وسكون

الهاء. وقد أريد به الجنس أى: أنهار. يعنى من ماء غير آسن، ومن لبن لم يتغير طعمه، ومن عسل مصفى، ومن خمر لذة للشاربين. ﴿مقعد﴾ مجلس. ﴿صدق﴾ أى: حق لا لغو فيه ولا تأثيم. ﴿مليك﴾ عزيز الملك تام السلطان.

التراكيب:

قوله ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر﴾ إنما صدر القصة بالتوكيد القسمى لإبراز كمال الإعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات، وإنما اكتفى بذكر آل فرعون للعلم بأن نفسه أولى بذلك. وقوله ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ استئناف بيانى كأنه قيل: فماذا فعل آل فرعون حينئذ؟ فقيل: كذبوا بآياتنا كلها. والفاء فى قوله ﴿فأخذناهم﴾ مفيدة للسببية. والاستفهام فى قوله ﴿أكفاركم خير من أولئكم﴾ للتبكيت. والضمير فى «أكفاركم» لقريش. والإشارة للأمم الهالكة المعدودة من قوم نوح إلى فرعون. ﴿وأم﴾ فى قوله ﴿أم لكم براءة فى الزبر﴾.. منقطعة بمعنى (بل) والهمزة المفيدة للتبكيت. والإضراب فيه انتقالى من التبكيت بما ذكر أولا إلى التبكيت بما ذكر ثانيًا. وقوله ﴿أم يقولون نحن جميع منتصر﴾ أم فيه منقطعة بمعنى (بل)، والهمزة التى للتبكيت أيضًا. والإضراب فيه كذلك للانتقال من التبكيت المذكور إلى وجه آخر من التبكيت. والالتفات على قراءة الجمهور للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب. وإنما لم يقل: «جميع منتصرون» بل قال ﴿جميع منتصر﴾ على الإفراد باعتبار لفظ جميع. و﴿بل﴾ فى قوله ﴿بل الساعة موعدهم﴾ للانتقال من تهديدهم بعذاب فظيع إلى تهديدهم بعذاب أدهى وأمر. وإنما وضع الظاهر موضع الضمير فى قوله ﴿والساعة أدهى﴾ بدل وهى أدهى.. لزيادة تهويلها. وقوله ﴿إن المجرمين﴾ استئناف لبيان أحوال الكافرين. وقوله ﴿يوم يسحبون﴾ معمول لقول مقدر تقديره: يقال لهم ذوقوا مس سقر يوم يسحبون، ويجوز أن يكون منصوبًا بما يفهم من قوله ﴿فى ضلال وسُعُر﴾ أى كائنون فى ضلال وسُعُر يوم يجرون. وسقر ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث. وقوله ﴿إنا كُلَّ شىء خلقناه بقدر﴾.. على قراءة الجمهور بنصب (كُلَّ). وهو منصوب بفعل محذوف يفسره المذكور

بعده. والباء فى قوله ﴿بقدر﴾ للملابسة. وأما على قراءة الرفع فهو مبتدأ وخبره ﴿خلقناه﴾ والمبتدأ وخبره فى محل رفع خبر إنَّ. وعلى هذا فكل من قراءة الرفع والنصب يثبت القدر الذى يجب الإيمان به. والتقدير على قراءة النصب: «إنا خلقنا كل شىء خلقناه حالة كونه متلبسا بتقديرنا». والتقدير على قراءة الرفع: «إنا كل شىء مخلوق لنا حالة كونه متلبسًا بتقديرنا».

وقوله ﴿إن المتقين فى جنات ونهر﴾ استئناف لبيان حسن حال المؤمنين عقيب بيان سوء حال الكافرين على سبيل الترهيب والترغيب. وقوله ﴿فى مقعد صدق﴾ فى محل رفع خبر ثان لإن. والإضافة فى ﴿مقعد صدق﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته. وقوله ﴿عند مليك مقتدر﴾ فى محل رفع خبر ثالث لإنَّ. ومن تمت له هذه الخصال، فقد كملت له الآمال.

المعنى الإجمالى:

واللهِ لقد أتى قوم فرعون الإنذارات والتحذيرات على لسان موسى وهارون. لم يصدقوا بالخوارق التسع جميعها، فأهلكناهم إهلاك قوى غالب قادر لا يعجزه شىء. أكفاركم يا قريش أقوى وأشد وأعظم مكانة فى الدنيا من هؤلاء المكذبين المذكورين الذين دمرناهم؟ بل ألكم عهد بالنجاة فى الكتب الإلهية. بل أيقولون نحن يد واحدة لا نُرام ولا نُضام ولا نُغلَب؟! ستدحر جماعتكم ويضرب المسلمون ظهوركم يعنى: يوم بدر.

بل لكم الويل يوم القيامة، ولعذاب القيامة أعظم داهية وبلية وأشد مرارة. إن المشركين فى حيرة وجنون أو نيران متقدة يومٍ يجرون فى النار على وجوههم. يقال لهم: اختبروا طعم إصابة سقر وأحِسّوا بها وقاسوا حرها. إنا أوجدنا كل شىء أوجدناه بتقدير منا وعلم سابق لوجوده. وما أمرنا لشىء نريد إيجاده إلا كلمة واحدة كإشارة بالعين فى السرعة وهى كن فيكون.. وواللهِ لقد دمرنا أشباهكم وأمثالكم فى التكذيب فهل من متعظ موجود؟. وكل شىء يعمله هؤلاء مكتوب فى كتب الحفظة. وكل صغير وكبير من

العمل مكتتب فى اللوح المحفوظ.

إن الذين يخافون الله فيتخذون لأنفسهم وقاية من عذابه بطاعته فى بساتين وأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، ومعه عسل مصفى، ومن خمر لذة للشاربين. إنهم فى مجلس صدق وحق لا لغو فيه ولا تأثيم، إنهم لدى عزيز الملك تام السلطان قد كملت لهم الطيبات بفضل الله تعالى.

ما ترشد إليه الآيات:

١- تكذيب آل فرعون بجميع الآيات.

٢- تدميرهم تدميرًا شنيعًا بسبب هذا التكذيب.

٣- ليست قريش أشد قوة من هؤلاء الهالكين.

٤- وليس لهم عهد بالنجاة فى الكتب الإلهية.

٥- تهديدهم بعذاب آجل هو أشد وأفظع.

٦- تهديدهم بعذاب عاجل لابد منه.

٧- جميع المخلوقات بتقدير الله عز وجل.

٨- لا يصعب على الله إيجاد ولا إعدام.

٩- جميع أفعال العباد مدونة محفوظة.

١٠- سعادة المتقين وتمام نعمة الله عليهم.

*****

الفهـــرس